

النَّهْجُ الْقَوِيمُ

مِنْ مَتْنِ

الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ

لشيخ الإسلام العلامة الحافظ الأصولي اللُّغويِّ

الشيخ عبد الله بن محمد الهرري الشيبلي

رحمه الله رحمة واسعة وغفر له ولوالديه

المتوفى ١٤٢٩هـ

بِشْرَكَ دَارُ الْمَشْرِائِعِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين وعلى آله وأصحابه الطيبين.

وبعد فإن العلم بالله تعالى وصفاته أجل العلوم وأعلاها وأوجبها وأولاهها، ويسمى علم الأصول وعلم التوحيد وعلم العقيدة، قال تعالى ﴿فَاعَلِمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفَرَ لِذَنْبِكَ﴾^(١)، ويسمى هذا العلم أيضاً مع أدلته العقلية والنقلية من الكتاب والسنة علم الكلام.

وقد اهتم العلماء الأفاضل بهذا العلم اهتماماً كبيراً، قال الزركشي في تشنيف المسامع «إن الأئمة انتدبوا للرد على أهل البدع والضلال وقد صنّف الشافعي كتاب «القياس» رد فيه على من قال بقدّم العالم من الملحدين وكتاب «الرد على البراهمة» وغير ذلك وأبو حنيفة كتاب «الفقه الأكبر» وكتاب «العالم والمتعلم» رد فيه على المخالفين وكذلك مالك سئل عن مسائل هذا العلم فأجاب عنها بالطريق القويم وكذلك الإمام أحمد» اهـ

ومن جملة المعتنين بهذا العلم تأليفاً وتدريساً الإمام المحدث الفقيه الشيخ عبد الله الهرري المعروف بالحبشي فألف عدة كتب

(١) سورة محمد/ الآية (١٩).

منها كتاب «الصراط المستقيم» وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وقد لقي إقبالاً بالغاً من أهل العلم والمعرفة وخصوصاً من طلبة العلم الشرعي فلذلك يسرنا أن نقدم الطبعة السادسة عشرة من هذا الكتاب سائلين المولى عزَّ وجلَّ أن ينفع به إنه على كل شيء قدير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ .
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنْظُرُوا نَفْسَ مَا
 قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ﴾ (١) .

وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَرَّمَتْ وَجْهَهُ «الْيَوْمَ الْعَمَلُ وَغَدًا
 الْحِسَابُ»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الرَّقَاقِ (٢) .

أَعْظَمُ حُقُوقِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ

اعْلَمْ أَنَّ أَعْظَمَ حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ هُوَ تَوْحِيدُهُ تَعَالَى
 وَأَنْ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ، لِأَنَّ الْإِشْرَاقَ بِاللَّهِ هُوَ أَكْبَرُ ذَنْبٍ يَقْتَرِفُهُ
 الْعَبْدُ وَهُوَ الذَّنْبُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ
 يَشَاءُ. قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ
 لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٣) .

وَكَذَلِكَ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ لَا يَغْفِرُهَا اللَّهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِنَّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ
 لَهُمْ﴾ (٤) .

(١) سورة الحشر/ الآية (١٨) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب في الأمل وطوله .

(٣) سورة النساء/ الآية (٤٨) .

(٤) سورة محمد/ الآية (٣٤) .

وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(١). وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٢).

وَيَجِبُ قَرْنُ الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَذَلِكَ أَقْلُ شَيْءٍ يَحْصُلُ بِهِ النِّجَاةُ مِنَ الْخُلُودِ الْأَبَدِيِّ فِي النَّارِ.

مَعْنَى الشَّهَادَتَيْنِ

فَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِجْمَالًا أَعْتَرَفُ بِلِسَانِي وَأَعْتَقِدُ وَأُذَعِنُ بِقَلْبِي أَنَّ الْمَعْبُودَ بِحَقِّ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى فَقَطَّ. وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ أَعْتَرَفُ بِلِسَانِي وَأُذَعِنُ بِقَلْبِي أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا ﷺ مَرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَى كَافَةِ الْعَالَمِينَ مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ، صَادِقٌ فِي كُلِّ مَا يَبْلُغُهُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى لِيُؤْمِنُوا بِشَرِيعَتِهِ وَيَتَّبِعُوهُ.

وَالْمَرَادُ بِالشَّهَادَتَيْنِ نَفْيُ الْأَلُوْهِيَّةِ عَمَّا سِوَى اللَّهِ وَإِثْبَاتُهَا لِلَّهِ تَعَالَى مَعَ الْإِقْرَارِ بِرِسَالَةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ كِتَابَ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ بَابَ قَوْلِهِ ﴿يَتَأَهَّلُ الْكُتَيْبِ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ/الآيَةُ ١٧١]، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ كِتَابَ الْإِيمَانِ بَابَ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى التَّوْحِيدِ دَخَلَ الْجَنَّةَ قَطْعًا.
(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ كِتَابَ الصَّلَاةِ بَابَ الْمَسَاجِدِ فِي الْبُيُوتِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١) فهذه الآية صريحة في تكفير مَنْ لم يؤمن بمحمد ﷺ فَمَنْ نازَعَ في هذا الموضوع يكون قد عاندَ القرآنَ وَمَنْ عاندَ القرآنَ كفرَ.

وأجمعَ (٢) الفقهاءُ الإسلاميونَ على تكفيرِ مَنْ دانَ بغيرِ الإسلامِ وعلى تكفيرِ مَنْ لم يُكفِّرْهُ أو شكَّ أو توقَّفَ كأنْ يقولُ أنا لا أقولُ إنه كافرٌ أو غيرُ كافرٍ.

واعلمَ باستيقانِ أنه لا يصحُّ الإيمانُ والإسلامُ ولا تُقبَلُ الأعمالُ الصالحةُ بدونِ الشهادتينِ بلفظِ أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأشهدُ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ أو ما في معناهما ولو بغيرِ اللغةِ العربيةِ.

ويكفي لصحةِ الإسلامِ النطقُ مرةً في العُمُرِ ويبقى وجوبها في كل صلاة لصحة الصلاة، هذا في مَنْ كانَ على غيرِ الإسلامِ ثم أرادَ الدخولَ في الإسلامِ.

وأما مَنْ نشأَ على الإسلامِ وكانَ يعتقدُ الشهادتينِ فلا يُشترطُ في حقهِ النطقُ بهما بل هو مسلمٌ لو لم ينطق.

وقالَ ﷺ «قالَ اللهُ تَعَالَى وما تقربَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه» حديثٌ قدسيٌّ رواه البخاريُّ (٣). وأفضلُ وأوَّلُ فرضٍ هوَ الإيمانُ باللهِ ورسولهِ.

(١) سورة الفتح/ الآية (١٣).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/٢٨٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب التواضع.

واعْتِقَادُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَطْ لَا يَكْفِي مَا لَمْ يُقَرَّنْ بِاعْتِقَادِ
أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

قَالَ تَعَالَى ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ﴾ (٣٢) (١) أَي لَا يُحِبُّ اللَّهُ مَنْ تَوَلَّى عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ
وَالرَّسُولِ لِكُفْرِهِمْ وَالْمَرَادُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ
الْإِيمَانُ بِهِمَا .

فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَهُوَ
كَافِرٌ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُحِبُّهُ لِكُفْرِهِ .

فَمَنْ قَالَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ لِأَنَّهُ خَلَقَ الْجَمِيعَ
فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ فَيُقَالُ لَهُ اللَّهُ خَلَقَ الْجَمِيعَ لَكِنْ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ .

(١) سورة آل عمران/ الآية (٣٢) .

لا دينَ صحيحٌ إلا الإسلامُ

الدينُ الحقُّ عندَ اللهِ الإسلامُ قالَ تعالى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ
الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ (٨٥) (١)،
وقالَ تعالى أيضًا ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (٢).

فكلُّ الأنبياءِ مسلمونَ فمنَ كانَ متبعاَ لموسى ﷺ فهوَ مسلمٌ
موسويٌّ، ومنَ كانَ متبعاَ لعيسى ﷺ فهوَ مسلمٌ عيسويٌّ، ويصحُّ
أنْ يقالَ لمنِ اتَّبَعَ مُحَمَّدًا ﷺ مسلمٌ محمديٌّ.

والإسلامُ هوَ الدينُ الذي رَضِيَهُ اللهُ لِعِبَادِهِ وَأَمَرَنَا بِاتِّبَاعِهِ.

ولا يُسَمَّى اللهُ مُسْلِمًا كما تلفظَ به بعضُ الجهالِ.

فقديمًا كانَ البشرُ جميعُهم على دينٍ واحدٍ هوَ الإسلامُ،
وإنما حدثَ الشُّركُ والكفرُ باللهِ تعالى بعدَ النبيِّ إدريسَ.

فكانَ نوحٌ أولَ نبيٍّ أُرسلَ إلى الكفارِ يدعُو إلى عبادَةِ اللهِ
الواحدِ الذي لا شريكَ له، وقد حذَّرَ اللهُ جميعَ الرُّسلِ منِ
بعدهِ مِنَ الشُّركِ.

فقامَ سيِّدنا مُحَمَّدٌ ﷺ بتجديدِ الدعوةِ إلى الإسلامِ بعدَ أنْ
انقطعَ في ما بينَ الناسِ في الأرضِ مؤيِّدًا بالمعجزاتِ الدالةِ
على نبوتِهِ فدخَلَ البعضُ في الإسلامِ، وجحدَ بنبوتِهِ أهلُ
الضلالِ الذينَ منهم مَن كانَ مشرِّكًا قبلًا كفرقةٍ من اليهودِ عبدتْ

(١) سورة آل عمران/ الآية (٨٥).

(٢) سورة آل عمران/ الآية (١٩).

عُزَيْرًا فَازْدَادُوا كُفْرًا إِلَى كُفْرِهِمْ، وَعَامَنَ بِهِ بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ عَالِمِ الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ، وَأُضْحَمَةَ النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ وَكَانَ نَصْرَانِيًّا ثُمَّ اتَّبَعَ الرَّسُولَ أَتْبَاعًا كَامِلًا وَمَاتَ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَلَّى عَلَيْهِ الرَّسُولُ صَلَاةَ الْغَائِبِ يَوْمَ مَاتَ (١) أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ بِمَوْتِهِ. ثُمَّ كَانَ يُرَى عَلَى قَبْرِهِ فِي اللَّيَالِي نَوْرٌ وَهَذَا دَلِيلٌ أَنَّهُ صَارَ مُسْلِمًا كَامِلًا وَلِيًّا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمبدأ الإسلامي الجامع لجميع أهل الإسلام عبادة الله وحده.

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الجنائز باب الصلاة على المسلم يموت في بلاد الشرك.

حُكْمٌ مِنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ لَفْظًا وَهُوَ مُنَاقِضٌ لِلْإِسْلَامِ مَعْنَى

هناك طوائفٌ عديدةٌ كذَّبتِ الإسلامَ معنَى ولو انتموا للإسلام بقولِهِمُ الشهادتينِ أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأشهدُ أن محمداً رسولُ اللهِ وصلَّوا وصاموا لأنَّهُمُ ناقضوا الشهادتينِ باعتقادِ ما يُنافيهما فإنَّهُمُ خرجوا من التَّوْحِيدِ بِعِبَادَتِهِمْ لِغَيْرِ اللهِ فهمُ كَفَّارٌ ليسوا مسلمينَ كالذين يعتقدونَ ألوهيَّةَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ أو الخَضِرِ أو الحاكمِ بأمرِ اللهِ وغيرِهِمُ أو بما في حُكْمِ ذَلِكَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ .

وحُكْمٌ مِنْ يَجْحَدُ الشهادتينِ التَّكْفِيرُ قَطْعًا ومأواهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فيها أبدًا لا يَنْقَطِعُ فِي الآخِرَةِ عَنْهُ الْعَذَابُ إِلَى ما لا نِهَايَةَ لَهُ وما هُوَ بِخَارِجٍ مِنَ النَّارِ .

ومَنْ أَدَّى أَعْظَمَ حَقوقِ اللهِ بتوحيدهِ تعالى أي تَرَكَ الإِشْرَاقَ بِهِ شَيْئًا وَتَصَدَّقَ رَسولِهِ ﷺ لا يَخْلُدُ فِي نارِ جَهَنَّمَ خُلُودًا أَبديًا وإن دَخَلَهَا بِمَعاصِيهِ وَمألَهُ فِي النِّهايَةِ عَلى أي حالٍ كانَ الخُرُوجُ مِنَ النَّارِ وَدُخُولُ الجَنَّةِ بَعْدَ أن يَكُونُ قَدْ نالَ العِقابَ الَّذي يَسْتَحِقُّ إن لَمْ يَغْفُ اللهُ عَنْهُ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قالَ لا إلهَ إلا اللهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزُنْ دَرَّةٌ مِنْ إِيْمانٍ» رواه البخاريُّ (١) .

وأما الَّذي قامَ بتوحيدهِ تعالى وَاجْتَنَبَ مَعاصِيَهُ وَقامَ بأوامِرِهِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان باب زيادة الإيمان ونقصانه.

فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِلَا عَذَابٍ حَيْثُ النَّعِيمُ الْمُقِيمُ الْخَالِدُ بِدَلَالَةِ الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ». وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ «أَفْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾»^(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ^(٢).

بيان أقسام الكفر

واعْلَمَ يَا أَخِي الْمُسْلِمَ أَنَّ هُنَاكَ اعْتِقَادَاتٍ وَأَفْعَالًا وَأَقْوَالَ تَنْقُضُ الشَّهَادَتَيْنِ وَتُوقِعُ فِي الْكُفْرِ لِأَنَّ الْكُفْرَ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعُ كُفْرٌ اعْتِقَادِيٌّ وَكُفْرٌ فِعْلِيٌّ وَكُفْرٌ لَفْظِيٌّ، وَذَلِكَ بِاتِّفَاقِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ كَالْتَّوَوِيِّ^(٣) وَابْنِ الْمُقْرِيِّ^(٤) مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَابْنِ عَابِدِينَ^(٥) مِنَ الْحَنْبَلِيَّةِ وَالْبُهَوِيِّ^(٦) مِنَ الْحَنَابِلَةِ وَالشَّيْخِ مُحَمَّدَ عَلِيَّشٍ^(٧) مِنَ الْمَالِكِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَلْيَنْظُرْهَا مَنْ شَاءَ. وَكَذَلِكَ غَيْرُ عُلَمَاءِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ الْأَمْضِينَ كَالْأَوْزَاعِيِّ فَإِنَّهُ كَانَ مُجْتَهِدًا لَهُ مَذْهَبٌ كَانَ يُعْمَلُ بِهِ ثُمَّ انْقَرَضَ أَتْبَاعُهُ.

(١) سورة السجدة/ الآية (١٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة.

(٣) المنهاج (ص/ ١٣١)، روضة الطالبين كتاب الردة (١٠/ ٦٤).

(٤) الإرشاد (ص/ ١٨١ - ١٨٢).

(٥) رد المحتار على الدر المختار، باب المرتد (٣/ ٢٨٣).

(٦) شرح منتهى الإرادات، باب حكم المرتد (٣/ ٣٨٦).

(٧) منح الجليل شرح مختصر خليل (٩/ ٢٠٥).

الكُفْرُ الاعتقاديُّ مكانُهُ القلبُ كنفِي صفةٍ من صفاتِ اللهِ تعالى الواجبةِ لَهُ إجماعًا كوجودِهِ وكونِهِ قادرًا وكونِهِ سميعًا بصيرًا أو اعتقادِ أَنَّهُ نورٌ بمعنى الضوءِ أو أَنَّهُ روحٌ.

قالَ الشيخُ عبدُ الغنيِّ النابلسيُّ^(١) «مَنْ اعتقدَ أَنَّ اللهُ ملاً السَّمَوَاتِ والأَرْضِ أو أَنَّهُ جِسْمٌ قاعدٌ فوقَ العرشِ فهو كافرٌ وإنَّ زعمَ أَنَّهُ مسلمٌ».

الكُفْرُ الفعليُّ كالقَاءِ المصحفِ في القاذوراتِ قالَ ابنُ عابدين^(٢) ولو لم يقصدِ الاستخفافَ لَأَنَّ فِعْلَهُ يَدُلُّ على الاستخفافِ. أو أوراقِ العلومِ الشرعيَّةِ أو أيِّ ورقةٍ عليها اسمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى مع العلمِ بوجودِ الاسمِ فيها، ومَنْ عَلَّقَ شعارَ الكُفْرِ على نفسه فإنَّ كانَ بِنِيَّةِ التبرُّكِ أو التعظيمِ أو الاستحلالِ من غيرِ ضرورةٍ كانَ مرتدًّا.

الكُفْرُ القوليُّ كمن يشتمُّ اللهُ تعالى بقوله والعياذُ باللهِ مِنَ الكُفْرِ (أختَ ربِّكَ) أو (ابنَ اللهِ) يقعُ الكُفْرُ هنا ولو لم يعتقدْ أَنَّ اللهُ أختًا أو ابناً.

ولا يكفرُ مَنْ نَقَلَ^(٣) عن غيره كُفْرِيَّةً حصلتْ منه مِنْ غيرِ استحسانٍ لها بقوله قال فلانٌ كذا، ولو أَخْرَجَ صيغةً قالَ إلى آخرِ الجملةِ فيشترطُ أن يكونَ في نِيَّتِهِ ذِكْرُ أداةِ الحكايةِ مُؤخَّرَةً عن الابتداءِ.

(١) الفتح الرباني (ص/١٢٤).

(٢) رد المحتار (٤/٢٢٢).

(٣) كتابه أو قولاً.

قاعدةُ اللَّفْظِ الَّذِي لَهُ مَعْنِيَانِ أَحَدُهُمَا نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَالْآخَرُ لَيْسَ كُفْرًا وَكَانَ الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ كُفْرٌ ظَاهِرًا لَا يُكْفَرُ قَائِلُهُ حَتَّى يُعْرَفَ مِنْهُ أَيُّ الْمَعْنِيَيْنِ أَرَادَ فَإِنْ قَالَ أَرَدْتُ الْمَعْنَى الْكُفْرِيَّ حُكْمٌ عَلَيْهِ بِالْكَفْرِ وَأُجْرِي عَلَيْهِ أَحْكَامُ الرَّدَّةِ وَإِلَّا فَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالْكَفْرِ، وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ اللَّفْظُ لَهُ مَعَانٍ كَثِيرَةٌ وَكَانَ كُلُّ مَعَانِيهِ كُفْرًا وَكَانَ مَعْنَى وَاحِدٌ مِنْهَا غَيْرَ كُفْرٍ لَا يُكْفَرُ إِلَّا أَنْ يُعْرَفَ مِنْهُ إِرَادَةُ الْمَعْنَى الْكُفْرِيَّ.

قال العلماءُ أمَّا الصَّرِيحُ أَيُّ الَّذِي لَيْسَ لَهُ إِلَّا مَعْنَى وَاحِدٌ يَقْتَضِي التَّكْفِيرَ فَيُحْكَمُ عَلَيْهِ قَائِلُهُ بِالْكَفْرِ كَقَوْلِ (أَنَا اللَّهُ) حَتَّى لَوْ صَدَرَ هَذَا اللَّفْظُ مِنْ وَلِيِّ فِي حَالَةِ غَيْبَةِ عَقْلِهِ يُعَزَّرُ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُوَ مَكْلَفًا تِلْكَ السَّاعَةَ. عَلَى أَنَّ الْوَلِيَّ لَا يَصْدُرُ مِنْهُ كُفْرٌ فِي حَالِ حُضُورِ عَقْلِهِ إِلَّا أَنْ يَسْبِقَ لِسَانُهُ لِأَنَّ الْوَلِيَّ مُحْفُوظٌ مِنَ الْكُفْرِ بِخِلَافِ الْمَعْصِيَةِ الْكَبِيرَةِ أَوْ الصَّغِيرَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَجُوزُ عَلَى الْوَلِيِّ لَكِنْ لَا يَسْتَمِرُّ عَلَيْهِ بَلْ يَتُوبُ عَنْ قَرَبٍ.

قالَ إِمَامُ الْحَرَمِينِ الْجَوِينِيُّ^(١) «تَّفَقَّ الْأُصُولِيُّونَ عَلَى أَنَّ مَنْ نَطَقَ بِكَلِمَةِ الرَّدَّةِ - أَيِ الْكُفْرِ - وَزَعَمَ أَنَّهُ أَضْمَرَ تَوْرِيهًا^(٢) كُفْرًا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا» وَأَقْرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَيُّ فَلَا يَنْفَعُهُ التَّأْوِيلُ الْبَعِيدُ كَالَّذِي يَقُولُ [بِعَامِّيَّةِ بَعْضِ الْبِلَادِ] (يَلْعَنُ رَسُولَ اللَّهِ) وَيَقُولُ قَصْدِي بِرَسُولِ اللَّهِ الصَّوَاعِقُ.

(١) عزاه في الزواجر إلى إمام الحرمين (٣٢/١).

(٢) أي أنه أراد به معنى بعيداً عن المعنى المتبادر من الكلمة لا يحتمله اللفظ.

فائدة مهمة

حَكْمٌ مَنْ يَأْتِي بِأَحَدِي أَنْوَاعِ هَذِهِ الْكُفْرِيَّاتِ هُوَ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُهُ الصَّالِحَةُ وَحَسَنَاتُهُ جَمِيعُهَا، فَلَا تُحْسَبُ لَهُ ذَرَّةٌ مِنْ حَسَنَةٍ كَانَتْ سَبَقَ لَهُ أَنْ يَعْمَلَ مِنْهَا مِنْ صَدَقَةٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ صِيَامٍ أَوْ صَلَاةٍ وَنَحْوِهَا. إِنَّمَا تُحْسَبُ لَهُ الْحَسَنَاتُ الْجَدِيدَةُ الَّتِي يَقُومُ بِهَا بَعْدَ تَجْدِيدِ إِيمَانِهِ ^(١) قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ ^(٢).

وَإِذَا قَالَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ قَبْلَ أَنْ يُجَدِّدَ إِيمَانَهُ بِقَوْلِهِ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ عَلَى حَالَتِهِ هَذِهِ فَلَا يَزِيدُهُ قَوْلُهُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِلَّا إِثْمًا وَكُفْرًا، لِأَنَّهُ يَكْذِبُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ^(٣)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ^(٤).

وَمِنْ أَحْكَامِ الرَّدَةِ أَنَّ الْمُرْتَدَّ يَفْسُدُ صِيَامُهُ وَتَيْمُمُهُ وَنِكَاحُهُ قَبْلَ الدُّخُولِ وَكَذَا بَعْدَهُ إِنْ لَمْ يَرْجِعْ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي الْعِدَّةِ، وَلَا يَصِحُّ عَقْدُ نِكَاحِهِ لَا عَلَى مُسْلِمَةٍ وَلَا كَافِرَةٍ وَلَوْ مُرْتَدَّةً مِثْلَهُ.

(١) أي بعد دخوله في الإسلام من جديد.

(٢) سورة المائدة/ الآية (٥).

(٣) سورة محمد/ الآية (٣٤).

(٤) سورة النساء/ الآية (١٦٨ - ١٦٩).

الوقايةُ مِنَ النَّارِ

قال الله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (١). وجاء في تفسير الآية أَنَّ الله يَأمر المؤمنين أَن يقوا أَنفُسهم وأهلهم النَّار التي وقودها النَّاس والحجارة بتعلُّم الأمور الدينية، وتعليم أهلهم ذلك (٢)، أي معرفة ما فرض الله فعله أو اجتنابه أي الواجبات والمحرمات وذلك كي لا يقع في التشبيه والتمثيل والكفر والضلال ذلك لأنَّه من يُشَبِّه الله تعالى بشيءٍ ما لَمْ تَصِحَّ عبادته لأنَّه يعبد شيئاً تخيُّله وتوهمه في مُخَيِّلَتِهِ وأوهامه، قال أبو حامد الغزالي «لا تصح العبادة إلا بعد معرفة المعبود» (٣).

ما جاء في بدء الخلق

قال رسول الله ﷺ عندما سئل عن بدء الأمر «كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض» رواه البخاري (٤). أجاب الرسول ﷺ

(١) سورة التحريم/ الآية (٦).

(٢) جاء ذلك عن سيدنا علي بن أبي طالب بإسناد قوي فقد رواه الحاكم في المستدرک (٤٩٤/٢) وقال «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، والبيهقي في المدخل إلى السنن (٣٣٧/١).

(٣) وقال الماوردي نحوه في أعلام النبوة (ص/٢١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [سورة الروم].

على هذا السؤال بأنّ الله لا بداية لوجوده أي أزليّ ولا أزليّ
سواه وبعبارة أخرى ففي الأزل لم يكن إلا الله تعالى، والله
تعالى خالق كل شيء أي مُخْرِجُه من العدم إلى الوجود.

ومعنى خلق كل شيء أنه أخرج جميع الموجودات من العدم
إلى الوجود.

والله تعالى حي لا يموت، لأنه لا نهاية لوجوده أي أبديّ،
فلا يطرأ عليه العدم إذ لو جاز عليه العدم لاستحال عليه القدم
أي الأزلية.

وحكم من يقول (الله خلق الخلق فمن خلق الله) التكفير
قطعاً لأنّه نسب إلى الله تعالى العدم قبل الوجود، ولا يقال
ذلك إلا في الحوادث أي المخلوقات، فالله تعالى واجب
الوجود أي لا يتصور في العقل عدمه، فليس وجوده كوجودنا
الحادث لأنّ وجودنا بإيجاده تعالى وكلّ ما سوى الله جائز
الوجود أي يمكن عقلاً وجوده بعد عدم وإعدامه بعد وجوده
بالنظر لذاته في حكم العقل.

واعلم أنّ أقسام الموجود ثلاثة

الأول أزليّ أبديّ وهو الله تعالى فقط أي لا بداية ولا نهاية
لوجوده.

وحكم من يقول إن هناك شيئاً أزليّاً سوى الله التكفير قطعاً
ولذلك كفرت الفلاسفة باعتقادهم السفیه أنّ العالم قديم أزليّ
لأن الأزلية لا تصح إلا لله تعالى فقط.

والثاني أبديّ لا أزليّ أي أنّ له بداية ولا نهاية له وهو الجنة

والنار فهما مخلوقتان أي لهما بداية إلا أنه لا نهاية لهما أي أبديتان فلا يطرأ عليهما خرابٌ أو فناءٌ لمشيئة الله بقاءهما، أما من حيث ذاتهما فيجوز عليهما الفناء عقلاً .

والثالث لا أزليٌّ ولا أبديٌّ أي أنّ له بداية وله نهاية وهو كل ما في هذه الدُّنيا من السموات السبع والأرض فلا بد من فناءهما وفناء ما فيهما من إنس وجن وملائكة .

واعلم أنه جرت عادة العلماء على ذكر أنّ الحكم العقليّ ينقسم إلى ثلاثة الوجوب والاستحالة والجواز، وقالوا الواجب ما لا يُتصوّر عدمه وهو الله وصفاته .

والمستحيل ما لا يتصور في العقل وجوده، وقد يعبرون عنه بالمتنع .

والجائز ما يتصور في العقل وجوده وعدمه ولذلك يصفون الله بالواجب الوجود .

قدم الله ليس زمانياً

الله تعالى كان قبل الزمان وقبل المكان، وقبل الظلمات وقبل النور، فهو تعالى ليس من قبيل العالم الكثيف كالأرض والحجر والكواكب والنبات والإنسان، وليس من قبيل العالم اللطيف كالنور والروح والهواء والجنّ والملائكة لمخالفته للحوادث أي لمخالفته جميع المخلوقات .

فلا نظير له تعالى أي لا مثيل له ولا شبيهه في ذاته ولا في صفاته ولا في فعله، لأنّه لو كان مُماتلاً لمخلوقاتِهِ بوجه من

الوَجُوهَ كَالْحَجْمِ وَالْحَرَكَةَ وَالسَّكُونَ وَنَحْوِ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ خَالِقًا لَهَا.

فالله تعالى مُنَزَّهٌ عَنِ الْإِتِّصَافِ بِالْحَوَادِثِ وَكَذَلِكَ صِفَاتُ اللَّهِ تَعَالَى هِيَ قَدِيمَةٌ أَيْ أَزَلِيَّةٌ. وَلِأَهْمِيَّةِ هَذَا الْبَحْثِ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ^(١) «مَنْ قَالَ بِحُدُوثِ صِفَاتِ اللَّهِ أَوْ شَكَّ أَوْ تَوَقَّفَ فَهُوَ كَافِرٌ»، ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ^(٢).

وَقَالَ الطَّحَاوِيُّ^(٣) «وَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِمَعْنَى مَنْ مَعَانِي الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ» اهـ

(١) الفقه الأكبر بشرح القاري (ص/٤٧).

(٢) وهي إحدى رسائله الخمس التي هي ثابتة عنه كما ذكر ذلك الحافظ اللغوي مرتضى الزبيدي في شرح الإحياء (٢/١٣ - ١٤).

(٣) العقيدة الطحاوية (ص/٥).

تَنْزِيهُِ اللّهِ عَنِ الْمَكَانِ وَتَصْحِيحُ وَجُودِهِ بِلَا مَكَانٍ عَقْلًا

والله تعالى غنيٌّ عن العالمين أي مستغن عن كل ما سواه أزلًا وأبدًا فلا يحتاج إلى مكان يتحيز فيه أو شيء يحلّ به أو إلى جهة لأنّه ليس كشيء من الأشياء ليس حجمًا كثيفًا ولا حجمًا لطيفًا والتحيز من صفات الجسم الكثيف واللطيف فالجسم الكثيف والجسم اللطيف متحيز في جهة ومكان قال الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣٣) (١) فأثبت الله تعالى لكل من الأربعة التحيز في فلكه وهو المدار.

ويكفي في تنزيهه الله عن المكان والحيز والجهة قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (٢) لأنه لو كان له مكان لكان له أمثال وأبعاد طول وعرض وعمق، ومن كان كذلك كان محدثًا محتاجًا لمن حدّه بهذا الطول وبهذا العرض وبهذا العمق، هذا الدليل من القرآن.

أما من الحديث فما رواه البخاريّ وابن الجارود والبيهقيّ (٣) بالإسناد الصحيح أنّ رسول الله ﷺ قال «كان الله ولم يكن شيء

(١) سورة الأنبياء/ الآية (٣٣).

(٢) سورة الشورى/ الآية (١١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/٩).

غيره»، ومعناه أنّ الله لم يزل موجوداً في الأزل ليس معه غيره لا ماء ولا هواء ولا أرض ولا سماء ولا كرسي ولا عرش ولا إنس ولا جن ولا ملائكة ولا زمان ولا مكان ولا جهات فهو تعالى موجود قبل المكان بلا مكان، وهو الذي خلق المكان فليس بحاجة إليه، وهذا ما يستفاد من الحديث المذكور.

وقال البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات»^(١) «استدل بعض أصحابنا في نفي المكان عنه بقول النبي ﷺ «أنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء»^(٢) وإذا لم يكن فوقه شيء ولا دونه شيء لم يكن في مكان» اهـ

وهذا الحديث فيه الردّ أيضاً على القائلين بالجهة في حقه تعالى.

وقد قال عليّ رضي الله عنه «كان الله ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان» رواه أبو منصور البغدادي^(٣).

وليس محور الاعتقاد على الوهم بل على ما يقتضيه العقل الصحيح السليم الذي هو شاهد للشرع، وذلك أنّ المحدود محتاج إلى من حدّه بذلك الحدّ فلا يكون إلهاً.

فكما صحّ وجود الله تعالى بلا مكان وجهة قبل خلق الأماكن والجهات فكذلك يصح وجوده بعد خلق الأماكن بلا

(١) الأسماء والصفات (ص/٤٠٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع.

(٣) الفرق بين الفرق (ص/٣٣٣).

مكان وجهة وهذا لا يكون نفياً لوجوده تعالى كما زعمت المشبهة والوهابية وهم الدعاة إلى التجسيم في هذا العصر.

وحكم من يقول (إنَّ الله تعالى في كل مكان أو في جميع الأماكن) التكفير إذا كان يفهم من هذه العبارة أنَّ الله بذاته مُنْبَثٌّ أو حال في الأماكن، أما إذا كان يفهم من هذه العبارة أنه تعالى مسيطر على كل شيء وعالم بكل شيء فلا يكفر، وهذا قصد كثير ممن يلهج بهاتين الكلمتين، ويجب النهي عنهما على كل حال لأنهما ليستا صادرتين عن السلف بل عن المعتزلة ثم استعملهما جهلة العوام.

ونرفع الأيدي في الدعاء للسماء لأنها مهبط الرحمات والبركات وليس لأنَّ الله موجود بذاته في السماء، كما أننا نستقبل الكعبة الشريفة في الصلاة لأنَّ الله تعالى أمرنا بذلك وليس لأنَّ لها ميزة وخصوصية بسكنى الله فيها.

ويكفر من يعتقد التحيُّز لله تعالى أو يعتقد أنَّ الله شيء كالهواء أو كالنُّور يملأ مكاناً أو غرفةً أو مسجداً.

وليس المقصود بالمعراج وصول الرسول ﷺ إلى مكانٍ ينتهي وجود الله تعالى إليه ويكفر من اعتقد ذلك إنما القصد من المعراج هو تشريف الرسول ﷺ بإطلاعه على عجائب في العالم العلويِّ وتعظيم مكانته ورؤيته للذات المقدَّس بفؤاده من غير أن يكون الذات في مكان وإنَّما المكان للرسول.

وأما قوله تعالى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾﴾^(١) فالمقصود بهذه الآية جبريل عليه السلام^(٢) حيث رآه الرسول ﷺ بمكة بمكان يقال له أجياد وله ستمائة جناح ساداً عظماً خلقه ما بين الأفق كما رآه مرة أخرى عند سدرة المنتهى كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾﴾^(٣).

وقول المشبهة الله قاعد على العرش شتم لله لأن القعود من صفة البشر والبهائم والجن والحشرات وكل وصف من صفات المخلوق ووصف الله به شتم له، قال الحافظ الفقيه اللغوي مرتضى الزبيدي^(٤) «من جعل الله تعالى مقدراً بمقدار كفر» أي لأنه جعله ذا كمية وحجم والحجم والكمية من موجبات الحدوث، وهل عرفنا أن الشمس حادثة مخلوقة من جهة العقل إلا لأن لها حجماً ولو كان لله تعالى حجم لكان مثلاً للشمس في الحجمية ولو كان كذلك ما كان يستحق الألوهية كما أن الشمس لا تستحق الألوهية. فلو طالب هؤلاء المشبهة عابد الشمس بدليل عقلي على استحقاق الله الألوهية وعدم استحقاق الشمس الألوهية لم يكن عندهم دليل وغاية ما يستطيعون أن يقولوا قال الله تعالى ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٥﴾﴾، فإن

(١) سورة النجم/ الآية (٨ - ٩).

(٢) فتح الباري (١/٢٣).

(٣) سورة النجم/ الآية (١٣ - ١٤).

(٤) إتحاف السادة المتقين (١٠٩/٢).

(٥) سورة الرعد/ الآية (١٦).

قالوا ذلك لعابد الشمس يقول لهم عابد الشمس أنا لا أو من بكتابكم أعطوني دليلاً عقلياً على أن الشمس لا تستحق الألوهية فهنا ينقطعون.

فلا يوجد فوق العرش شيء حيّ يسكنه إنما يوجد كتاب فوق العرش مكتوب فيه «إن رحمتي سبقت غضبي» أي أن مظاهر الرحمة أكثر من مظاهر الغضب، الملائكة من مظاهر الرحمة وهم أكثر عددًا من قطرات الأمطار وأوراق الأشجار، والجنة من مظاهر الرحمة وهي أكبر من جهنم بآلاف المرات.

وأما الحديث الذي رواه الترمذي^(١) وهو «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، وفي رواية أخرى^(٢) «يرحمكم أهل السماء»، فهذه الرواية تفسر الرواية الأولى لأن خير ما يفسر به الحديث الوارد بالوارد كما قال الحافظ العراقي في ألفيته وخير ما فسّره بالوارد.

ثم المرادُ بأهل السماء الملائكة، ذكر ذلك الحافظ العراقي في أماليه عقيب هذا الحديث ونص عبارته^(٣) «واستدل بقوله «أهل السماء» على أن المراد بقوله من في السماء الملائكة» اه لأنه لا يقال لله «أهل السماء». فلا حجة لهم في الآية ﴿ءَأَمْنُم مِّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾^(٤)، ويقال مثل ذلك في الآية

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب البر والصلة عن رسول الله باب ما جاء في رحمة الناس. وقال «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٦٠/٢).

(٣) انظر المجلس السادس والثمانين من أمالي العراقي (ص/٧٧).

(٤) سورة الملك/ الآية (١٦).

التي تليها وهي ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾^(١) فَمَن فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَيْضًا أَهْلُ السَّمَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ عَلَى الْكُفَّارِ الْمَلَائِكَةَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَحُلَّ عَلَيْهِمْ عِقَابُهُ فِي الدُّنْيَا كَمَا أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْمَوْكَلُونَ بِتَسْلِيطِ الْعِقَابِ عَلَى الْكُفَّارِ لِأَنَّهُمْ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ وَهُمْ يَجْرُونَ عُنُقًا مِنْ جَهَنَّمَ إِلَى الْمَوْقِفِ لِيَرْتَاعَ الْكُفَّارُ بِرُؤْيَيْهِ.

(١) سورة الملك/ الآية (١٧).

صفات الله الثلاث عشرة

إنَّ الواجب العينيَّ المفروض على كلِّ مكلفٍ أي البالغ العاقل أن يعرف من صفات الله ثلاث عشرة صفة الوجود والقدم والمخالفة للحوادث والوحدانية والقيام بنفسه والبقاء والقدرة والإرادة والحياة والعلم والكلام والسمع والبصر وإنه يستحيل على الله ما ينافي هذه الصفات.

ولما كانت هذه الصفات ذكرت كثيرًا في النصوص الشرعية قال العلماء^(١) يجب معرفتها وجوبًا عينيًا أي على كل مكلف بعينه.

الوجود

اعلمَ رحمك الله أنَّ الله تعالى موجودٌ أزلاً وأبدًا فليس وجودُهُ تعالى بإيجادٍ موجدٍ.

وقد استنكرَ بعضُ الناسِ قولَ «الله موجودٌ» لكونه على وزنٍ مفعولٍ والجوابُ أنَّ مفعولًا قد يُطلقُ على مَنْ لم يقع عليه فعلٌ الغيرِ كما نقولُ اللهُ معبودٌ وهؤلاءِ ظنوا بأنفسهم أنَّ لهم نصيبًا في علمِ اللغة وليسوا كما ظنَّوا.

قالَ اللغويُّ الكبيرُ شارحُ القاموسِ الزبيديُّ في شرحِ الإحياءِ ما نصَّه^(٢) «والبارئُ تعالى موجودٌ فصَحَّ أن يُرى».

(١) ذكر ذلك عبد المجيد الشرنوبى في شرح تائية السلوك (ص/٦٠)، وأبو بكر الدمياطى في كتابه إعانة الطالبين (١/٢٥).

(٢) إتحاف السادة المتقين (٢/١١٩).

وقال الفيومي اللغوي صاحب المصباح^(١) «الموجودُ خلافُ المعدومِ».

الْقَدَمُ

يجبُ لله القِدَمُ بمعنى الأزلية لا بمعنى تقادُم العهدِ والزَمَنِ لأنَّ لفظَ القديمِ والأزليِّ إذا أُطلقا على الله كانَّ المعنى أنه لا بدايةَ لوجوده، فيقالُ اللهُ أزلِّي، اللهُ قديمٌ، وإذا أُطلقا على المخلوقِ كانا بمعنى تقادُم العهدِ والزمنِ، قال اللهُ تعالى في القمرِ ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾^(٢)، وقال صاحبُ القاموسِ الفيروزبادي^(٣) «الهرمانِ بناءً أزيلانٍ بمصر».

وأما برهانُ قدمه تعالى فهو أنه لو لم يكن قديمًا للزمَ حدوثه فيفتقرُ إلى محدثٍ فيلزمُ الدَّورُ أو التسلسلُ وكلُّ منهما محالٌ، فثبتَ أنَّ حدوثه تعالى محالٌ وقدمه ثابتٌ.

الْبَقَاءُ

يجبُ البقاءُ لله تعالى بمعنى أنه لا يلحقُه فناءٌ، لأنه لما ثبتَ وجوبُ قدمه تعالى عقلاً وجبَ له البقاءُ لأنه لو أمكنَ أنْ يلحقَه العدمُ لانتفى عنه القِدَمُ، فهو تباركُ وتعالى الباقي لذاته لا باقي لذاته غيره، وأمَّا الجنةُ والنارُ فبقاؤهما ليسَ بالذاتِ بل لأنَّ الله شاءَ لهما البقاءَ، فالجنةُ باعتبارِ ذاتها يجوزُ عليها الفناءُ وكذلك النارُ باعتبارِ ذاتها يجوزُ عليها الفناءُ.

(١) المصباح المنير (ص/٢٤٨).

(٢) سورة يس/ الآية (٣٩).

(٣) القاموس المحيط (ص/١٥٠٩).

السَّمْعُ

وَهُوَ صِفَةٌ أَزَلِيَّةٌ ثَابِتَةٌ لِذَاتِ اللَّهِ . فَهُوَ يَسْمَعُ الْأَصْوَاتَ بِسَمْعٍ
أَزَلِيٍّ أَبَدِيٍّ لَا كَسَمْعِنَا ، لَيْسَ بِأُذُنٍ وَصِمَاخٍ ، فَهُوَ تَعَالَى لَا
يَعْرُوبُ أَي لَا يَغِيبُ عَنْ سَمْعِهِ مَسْمُوعٌ وَإِنْ خَفِيَ أَي عَلَيْنَا وَبَعْدَ
أَي عَنَّا كَمَا يَعْلَمُ بِغَيْرِ قَلْبٍ .

وَدَلِيلٌ وَجُوبِ السَّمْعِ لَهُ عَقْلًا أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُن مُتَّصِفًا بِالسَّمْعِ
لَكَانَ مُتَّصِفًا بِالصَّمَمِ وَهُوَ نَقْصٌ عَلَى اللَّهِ وَالنَّقْصُ عَلَيْهِ مُحَالٌ ،
فَمَنْ قَالَ إِنَّهُ يَسْمَعُ بِأُذُنٍ فَقَدْ أَلْحَدَ وَكَفَرَ .

البَصْرُ

يَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى عَقْلًا البَصْرُ أَي الرُّؤْيَةُ ، فَهُوَ يَرَى بِرُؤْيَةٍ أَزَلِيَّةٍ
أَبَدِيَّةٍ الْمَرْتَبَاتِ جَمِيعَهَا فَيَرَى ذَاتَهُ بِغَيْرِ حَدَقَةٍ وَجَارِحَةٍ لِأَنَّ
الْحَوَاسَّ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى ثُبُوتِ البَصْرِ لَهُ عَقْلًا أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ بَصِيرًا رَائِيًا
لَكَانَ أَعْمَى ، وَالْعَمَى أَي عَدَمُ الرُّؤْيَةِ نَقْصٌ عَلَى اللَّهِ ، وَالنَّقْصُ
عَلَيْهِ مُسْتَحِيلٌ .

وَدَلِيلُ السَّمْعِ وَالبَصْرِ السَّمْعِيُّ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ كَقَوْلِهِ
تَعَالَى ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ ^(١) ، وَقَوْلِهِ ﷺ فِي تَعْدَادِ أَسْمَاءِ
اللَّهِ الْحُسْنَى «السَّمِيعُ البَصِيرُ» وَهُوَ فِي حَدِيثٍ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ
وَصَحَّحَهُ ابْنُ حَبَانَ ^(٢) .

(١) سورة الشورى/ الآية (١١).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الدعوات باب ما جاء في عقد التسبيح باليد .

الكَلَامُ

الكلامُ هُوَ صِفَةٌ أَزَلِيَّةٌ أَبَدِيَّةٌ هُوَ مُتَكَلِّمٌ بِهَا ءَامِرٌ نَاهٍ وَاعِدٌ مُتَوَعِّدٌ لَيْسَ ككَلَامٍ غَيْرِهِ بَلْ أَزَلِيٌّ بِأَزَلِيَّةِ الذَّاتِ لَا يُشْبِهُ كَلَامَ الخَلْقِ وَلَيْسَ بِصَوْتٍ يَحْدُثُ مِنْ انْسِلَالِ الهَوَاءِ أَوْ اصْطِكَاكِ الأَجْرَامِ وَلَا بِحَرْفٍ يَنْقَطِعُ بِإِطْبَاقِ شَفَةِ أَوْ تَحْرِيكِ لِسَانٍ. وَنَعْتَقُدُ أَنَّ مُوسَى سَمِعَ كَلَامَ اللّهِ الأَزَلِيَّ بِغَيْرِ حَرْفٍ وَلَا صَوْتٍ كَمَا يَرَى المُؤْمِنُونَ ذَاتَ اللّهِ فِي الآخِرَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ جَوْهَرًا وَلَا عَرَضًا لِأَنَّ العَقْلَ لَا يُحِيلُ سَمَاعَ مَا لَيْسَ بِحَرْفٍ وَلَا صَوْتٍ.

وَكَلَامُهُ تَعَالَى الذَّاتِيُّ لَيْسَ حُرُوفًا مُتَعَابِقَةً ككَلَامِنَا، وَإِذَا قَرَأَ القَارِئُ مَنَّا كَلَامَ اللّهِ فَقَرَأَتْهُ حَرْفٌ وَصَوْتٌ لَيْسَتْ أَزَلِيَّةً. وَقَدْ نُقِلَ هَذَا التَّفْصِيلُ عَنِ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ وَهُوَ مِنْ السَّلَفِ أَدْرَكَ شَيْئًا مِنَ المائَةِ الأُولَى ثُمَّ تَوَفَّى سَنَةَ مائَةٍ وَخَمْسِينَ هِجْرِيَّةً قَالَ^(١) «وَاللّهِ يَتَكَلَّمُ لَا بِأَلَةٍ وَحَرْفٍ وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ بِأَلَةٍ وَحَرْفٍ» فَلْيُفْهَمْ ذَلِكَ. وَلَيْسَ الأَمْرُ كَمَا تَقُولُ المُشْبِهَةُ بِأَنَّ السَّلَفَ مَا كَانُوا يَقُولُونَ بِأَنَّ اللّهِ مُتَكَلِّمٌ بِكَلَامٍ لَيْسَ بِحَرْفٍ وَإِنَّمَا هَذَا بَدْعَةُ الأَشَاعِرَةِ وَهَذَا الكَلَامُ مِنْ أَبِي حَنِيفَةَ ثَابِتٌ ذَكَرَهُ فِي إِحْدَى رِسَالَتِهِ الخَمْسِ.

= وَقَالَ «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ» وَقَالَ «وَلَا نَعْلَمُ فِي كَثِيرِ شَيْءٍ مِنَ الرِّوَايَاتِ لَهُ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ ذَكَرَ الأَسْمَاءُ إِلَّا فِي هَذَا الحَدِيثِ»، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حَبَانَ، انظُرِ الإِحْسَانَ بِتَرْتِيبِ صَحِيحِ ابْنِ حَبَانَ كِتَابِ الرِّقَاقِ بَابِ الأَذْكَارِ (٢/٨٨ - ٨٩).
(١) الفقه الأكبر بشرح ملا علي القاري (ص/٥٨).

والقُرْءَانُ لَهُ إِطْلَاقَانِ يُطْلَقُ عَلَى اللَّفْظِ الْمُنَزَّلِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى الْكَلَامِ الذَّاتِيِّ الْأَزْلِيِّ الَّذِي لَيْسَ هُوَ بِحَرْفٍ وَلَا صَوْتٍ وَلَا لُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ وَلَا غَيْرِهَا. فَإِنْ قُصِدَ بِهِ الْكَلَامُ الذَّاتِيُّ فَهُوَ أَزْلِيٌّ لَيْسَ بِحَرْفٍ وَلَا صَوْتٍ، وَإِنْ قُصِدَ بِهِ وَبِسَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ اللَّفْظُ الْمُنَزَّلُ فَمِنْهُ مَا هُوَ بِاللُّغَةِ الْعِبْرِيَّةِ وَمِنْهُ مَا هُوَ بِاللُّغَةِ السُّرْيَانِيَّةِ وَهَذِهِ اللُّغَاتُ وَغَيْرُهَا مِنَ اللُّغَاتِ لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً فَخَلَقَهَا اللَّهُ تَعَالَى فَصَارَتْ مَوْجُودَةً وَاللَّهُ تَعَالَى كَانَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ مُتَكَلِّمًا قَبْلَهَا وَلَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا وَكَلَامَهُ الَّذِي هُوَ صِفَتُهُ أَزْلِيٌّ أَبَدِيٌّ وَهُوَ كَلَامٌ وَاحِدٌ وَهَذِهِ الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ كُلُّهَا عِبَارَاتٌ عَنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ الذَّاتِيِّ الْأَزْلِيِّ الْأَبَدِيِّ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ الْعِبَارَةِ حَادِثَةً كَوْنُ الْمَعْبَرِ عَنْهُ حَادِثًا أَلَا تَرَى أَنَا إِذَا كَتَبْنَا عَلَى لَوْحٍ أَوْ جِدَارٍ «اللَّهُ» فَقِيلَ هَذَا اللَّهُ فَهَلْ مَعْنَى هَذَا أَنْ أَشْكَالَ الْحُرُوفِ الْمَرْسُومَةِ هِيَ ذَاتُ اللَّهِ لَا يَتَوَهَّمُ هَذَا عَاقِلٌ إِنَّمَا يُفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ عِبَارَةٌ عَنِ الْإِلَهِ الَّذِي هُوَ مَوْجُودٌ مَعْبُودٌ خَالِقٌ لِكُلِّ شَيْءٍ وَمَعَ هَذَا لَا يَقَالُ الْقُرْءَانُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مَخْلُوقٌ لَكِنْ يُبَيَّنُ فِي مَقَامِ التَّعْلِيمِ أَنَّ اللَّفْظَ الْمُنَزَّلَ لَيْسَ قَائِمًا بِذَاتِ اللَّهِ بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ لِأَنَّهُ حُرُوفٌ يَسْبِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَمَا كَانَ كَذَلِكَ حَادِثٌ مَخْلُوقٌ قِطْعًا. لَكِنَّهُ لَيْسَ مِنْ تَصْنِيفِ مَلِكٍ وَلَا بَشَرٍ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْكَلَامِ الذَّاتِيِّ الَّذِي لَا يُوصَفُ بِأَنَّهُ عَرَبِيٌّ وَلَا بِأَنَّهُ عِبْرَانِيٌّ وَلَا بِأَنَّهُ سُرْيَانِيٌّ وَكُلُّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ كَلَامُ اللَّهِ، أَيْ أَنَّ صِفَةَ الْكَلَامِ الْقَائِمَةَ بِذَاتِ اللَّهِ يُقَالُ لَهَا كَلَامُ اللَّهِ، وَاللَّفْظُ الْمُنَزَّلُ الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنْهُ يُقَالُ لَهُ كَلَامُ اللَّهِ.

الإِرَادَةُ

اعْلَمْ أَنَّ الإِرَادَةَ وَهِيَ الْمَشِيئَةُ وَاجِبَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَهِيَ صِفَةٌ أَرْزَلِيَّةٌ أَبَدِيَّةٌ يُخَصِّصُ اللَّهُ بِهَا الْجَائِزَ الْعَقْلِيَّ بِالْوُجُودِ بَدَلَ الْعَدَمِ ، وَبِصِفَةِ دُونَ أُخْرَى وَبِوَقْتِ دُونَ أُخْرَى .

وَبُرْهَانُ وُجُوبِ الإِرَادَةِ لِلَّهِ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُرِيدًا لَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ ، لِأَنَّ الْعَالَمَ مُمَكِّنُ الْوُجُودِ فَوُجُودُهُ لَيْسَ وَاجِبًا لِذَاتِهِ عَقْلًا وَالْعَالَمُ مَوْجُودٌ فَعَلِمْنَا أَنَّهُ مَا وَجِدَ إِلَّا بِتَخْصِيصِ مُخَصَّصٍ لَوْجُودِهِ وَتَرْجِيحِهِ لَهُ عَلَى عَدَمِهِ ، فَثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ مُرِيدٌ شَاءً .

ثُمَّ الإِرَادَةُ بِمَعْنَى الْمَشِيئَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ شَامِلَةٌ لِأَعْمَالِ الْعِبَادِ جَمِيعِهَا الْخَيْرِ مِنْهَا وَالشَّرِّ ، فَكُلُّ مَا دَخَلَ فِي الْوُجُودِ مِنْ أَعْمَالِ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ وَمِنْ كُفْرٍ أَوْ مَعَاصٍ أَوْ طَاعَةٍ فَبِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقَعَ وَحَصَلَ وَهَذَا كَمَالٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّ شُمُولَ الْقُدْرَةِ وَالْمَشِيئَةِ لِائِقٌ بِجَلَالِ اللَّهِ ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ يَقَعُ فِي مَلِكِهِ مَا لَا يَشَاءُ لَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلَ الْعَجْزِ وَالْعَجْزُ مُسْتَحِيلٌ عَلَى اللَّهِ .

وَالْمَشِيئَةُ تَابِعَةٌ لِلْعِلْمِ أَيَّ أَنَّهُ مَا عَلِمَ حُدُوثَهُ فَقَدْ شَاءَ حُدُوثَهُ وَمَا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَكُونَ .

وَلَيْسَتْ الْمَشِيئَةُ تَابِعَةً لِلْأَمْرِ بِدَلِيلِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ بِذَبْحِ وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ وَلَمْ يَشَأْ لَهُ ذَلِكَ .

فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ يَأْمُرُ بِمَا لَمْ يَشَأْ وَقُوعُهُ فَالْجَوَابُ أَنَّهُ قَدْ يَأْمُرُ بِمَا لَمْ يَشَأْ كَمَا أَنَّهُ عَلِمَ بِوُقُوعِ شَيْءٍ مِنَ الْعَبْدِ وَنَهَاهُ عَنْ فِعْلِهِ .

الْقُدْرَةُ

يَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى الْقُدْرَةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَالْمُرَادُ بِالشَّيْءِ هُنَا الْجَائِزُ الْعَقْلِيُّ فَخَرَجَ بِذَلِكَ الْمُسْتَحِيلُ الْعَقْلِيُّ لِأَنَّهُ غَيْرُ قَابِلٍ لِلوُجُودِ فَلَمْ يَصْلُحْ أَنْ يَكُونَ مَحَلًّا لِتَعَلُّقِ الْقُدْرَةِ، وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ ابْنُ حَزْمٍ فَقَالَ^(١) «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَادِرٌ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا، إِذْ لَوْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ لَكَانَ عَاجِزًا»، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ غَيْرُ لَازِمٍ لِأَنَّ اتِّخَاذَ الْوَلَدِ مُحَالٌ عَلَى اللَّهِ وَالْمُحَالُ الْعَقْلِيُّ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْقُدْرَةِ، وَعَدَمُ تَعَلُّقِ الْقُدْرَةِ بِالشَّيْءِ تَارَةٌ يَكُونُ لِقُصُورِهَا عَنْهُ وَذَلِكَ فِي الْمَخْلُوقِ، وَتَارَةٌ يَكُونُ لِعَدَمِ قَبُولِ ذَلِكَ الشَّيْءِ الدَّخُولَ فِي الْوُجُودِ أَيْ حُدُوثَ الْوُجُودِ لِكَوْنِهِ مُسْتَحِيلًا عَقْلِيًّا أَوْ لِعَدَمِ قَبُولِ ذَلِكَ الشَّيْءِ الْعَدَمَ لِكَوْنِهِ وَاجِبًا عَقْلِيًّا. وَالْعَجْزُ هُوَ الْأَوَّلُ الْمَنْفِيُّ عَنِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى لَا الثَّانِي، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ وَلَا عَاجِزٌ، قَالَ بَعْضُهُمْ كَمَا لَا يُقَالُ عَنِ الْحَجَرِ عَالِمٌ وَلَا جَاهِلٌ.

وَكَذَلِكَ يُجَابُ عَلَى قَوْلِ بَعْضِ الْمُلْحِدِينَ «هَلِ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُ» وَهَذَا فِيهِ تَجْوِيزُ الْمَحَالِ الْعَقْلِيِّ، وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَرْزَلِيٌّ وَلَوْ كَانَ لَهُ مِثْلٌ لَكَانَ أَرْزَلِيًّا، وَالْأَرْزَلِيُّ لَا يُخْلَقُ لِأَنَّهُ مَوْجُودٌ فَكَيْفَ يُخْلَقُ الْمَوْجُودُ.

أَمَّا الْمُسْتَحِيلُ الْعَقْلِيُّ فَعَدَمُ قَبُولِهِ الدَّخُولَ فِي الْوُجُودِ ظَاهِرٌ وَأَمَّا الْوَاجِبُ الْعَقْلِيُّ فَلَا يَقْبَلُ حُدُوثَ الْوُجُودِ لِأَنَّ وُجُودَهُ أَرْزَلِيٌّ، فَرَقُّ

(١) انظر المحلى (١/٣٣).

بينَ الوجودِ وبينَ الدخولِ في الوجودِ فالوجودُ يشمَلُ الوجودَ الأزليَّ والوجودَ الحادثَ، أما الدخولُ في الوجودِ فهو الوجودُ الحادثُ فالواجبُ العقليُّ اللهُ وصفاته، فالله واجبٌ عقليُّ وجودُهُ أزليُّ وصفاته أزليَّةٌ ولا يُقالُ لله ولا لصفاته داخلٌ في الوجودِ لأنَّ وجودَهُما أزليُّ، فقولنا إنَّ الواجبَ العقليَّ لا يقبلُ الدخولَ في الوجودِ صحيحٌ لكن يقصُرُ عنه أفهامُ المُبتدئينَ في العقيدة، أمَّا عندَ مَنْ مارسَ فهي واضحةٌ المُرادِ.

العِلْمُ

اعلمَ أَنَّ عِلْمَ اللهُ قَدِيمٌ أَزْلِيٌّ كَمَا أَنَّ ذَاتَهُ أَزْلِيٌّ، فلم يزلْ عالمًا بذاته وصفاته وما يُحدثُه من مخلوقاته، فلا يتَّصِفُ بعلمِ حادثٍ لأنَّه لو جازَ اتَّصافُه بالحوادثِ لانتفى عنه القدمُ لأنَّ ما كان محلًّا للحوادثِ لا بُدَّ أن يكونَ حادثًا.

وَمَا أَوْهَمَ تَجَدُّدَ الْعِلْمِ لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾^(١) فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ ﴿وَعَلِمَ﴾ لَيْسَ رَاجِعًا لِقَوْلِهِ ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ أَنَّهُ تَعَالَى خَفَّفَ عَنْكُمْ الْآنَ لِأَنَّهُ عَلِمَ بِعِلْمِهِ السَّابِقِ فِي الْأَزَلِ أَنَّهُ يَكُونُ فِيكُمْ ضَعْفٌ.

وكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾^(٢) مَعْنَاهُ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نُمَيِّزَ أَي نَظْهَرَ لِلخَلْقِ مَنْ

(١) سورة الأنفال/ الآية (٦٦).

(٢) سورة محمد/ الآية (٣١).

يُجَاهِدُ وَيَضْرِبُ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَكَانَ اللَّهُ عَالِمًا قَبْلُ كَمَا نَقَلَ
الْبُخَارِيُّ^(١) ذَلِكَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ مَعْمَرِ بْنِ الْمُثَنَّى، وَهَذَا شَبِيهُ
بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(٢).

الْحَيَاةُ

يَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى الْحَيَاةُ، فَهُوَ حَيٌّ لَا كَالْأَحْيَاءِ إِذْ حَيَاتُهُ أَرْزَلِيَّةٌ
أَبَدِيَّةٌ لَيْسَتْ بِرُوحٍ وَدَمٍ.
وَالدَّلِيلُ عَلَى وُجُوبِ حَيَاتِهِ وَجُودَ هَذَا الْعَالَمِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ
حَيًّا لَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ مِنَ الْعَالَمِ، لَكِنَّ وُجُودَ الْعَالَمِ ثَابِتٌ بِالْحِسِّ
وَالضَّرُورَةِ بِلا شَكٍّ.

الْوَحْدَانِيَّةُ

مَعْنَى الْوَحْدَانِيَّةِ أَنَّهُ لَيْسَ ذَاتًا مُؤَلَّفًا مِنْ أَجْزَاءٍ، فَلَا يُوجَدُ
ذَاتٌ مِثْلُ ذَاتِهِ وَلَيْسَ لغيرِهِ صِفَةٌ كصِفَتِهِ أَوْ فِعْلٌ كفِعْلِهِ وَلَيْسَ
الْمُرَادُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَحْدَانِيَّةَ الْعَدَدِ إِذِ الْوَاحِدُ فِي الْعَدَدِ لَهُ نِصْفٌ
وَأَجْزَاءٌ أَيْضًا، بَلِ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَا شَبِيهَ لَهُ.

وَبِرَهَانٍ وَحْدَانِيَّتِهِ هُوَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلصَّانِعِ مِنْ أَنْ يَكُونَ حَيًّا
قَادِرًا عَالِمًا مُرِيدًا مُخْتَارًا، فَإِذَا ثَبَتَ وَصَفُ الصَّانِعِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ
فُلْنَا لَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَيًّا
قَادِرًا عَالِمًا مُرِيدًا مُخْتَارًا وَالْمُخْتَارَانِ يَجُوزُ اخْتِلَافُهُمَا فِي

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب سورة العنكبوت.

(٢) سورة الأنفال/ الآية (٣٧).

الِاخْتِيَارِ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا غَيْرُ مُجْبَرٍ عَلَى مُوَافَقَةِ الْآخَرِ فِي اخْتِيَارِهِ، وَإِلَّا لَكَانَا مُجْبُورَيْنِ وَالْمُجْبُورُ لَا يَكُونُ إِلَهًا، فإِذَا صَحَّ هَذَا فَلَوْ أَرَادَ أَحَدُهُمَا خِلَافَ مُرَادِ الْآخَرِ فِي شَيْءٍ كَأَنْ أَرَادَ أَحَدُهُمَا حَيَاةَ شَخْصٍ وَأَرَادَ الْآخَرُ مَوْتَهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ أَنْ يَتِمَّ مُرَادُهُمَا أَوْ لَا يَتِمَّ مُرَادُهُمَا أَوْ يَتِمَّ مُرَادُهُمَا أَوْ يَتِمَّ مُرَادُ أَحَدِهِمَا وَلَا يَتِمَّ مُرَادُ الْآخَرِ، وَمُحَالٌ تَمَامٌ مُرَادَيْهِمَا لِتَضَادِّهِمَا أَيُّ إِنْ أَرَادَ أَحَدُهُمَا حَيَاةَ شَخْصٍ وَأَرَادَ الْآخَرُ مَوْتَهُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الشَّخْصُ حَيًّا وَمَيِّتًا فِي آنٍ وَوَاحِدٍ، وَإِنْ لَمْ يَتِمَّ مُرَادُهُمَا فَهَمَّا عَاجِزَانِ وَالْعَاجِزُ لَا يَكُونُ إِلَهًا، وَإِنْ تَمَّ مُرَادُ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يَتِمَّ مُرَادُ الْآخَرِ فَإِنَّ الَّذِي لَمْ يَتِمَّ مُرَادُهُ عَاجِزٌ وَلَا يَكُونُ الْعَاجِزُ إِلَهًا وَلَا قَدِيمًا، وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الْمُؤَحِّدِينَ تُسَمَّى بِدَلَالَةِ التَّمَانُعِ قَالَ تَعَالَى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(١).

الْقِيَامُ بِالنَّفْسِ

اعْلَمْ أَنَّ مَعْنَى قِيَامِهِ بِنَفْسِهِ هُوَ اسْتِعْنَاؤُهُ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى مُخَصَّصٍ لَهُ بِالْوُجُودِ لِأَنَّ الْاِحْتِيَاجَ إِلَى الْغَيْرِ يُنَافِي قَدَمَهُ وَقَدْ ثَبَتَ وَجُوبُ قَدَمِهِ وَبَقَائِهِ.

المَخَالَفَةُ لِلْحَوَادِثِ

يَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ مُخَالَفًا لِلْحَوَادِثِ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ خَلْقِهِ فَلَيْسَ هُوَ بِجَوْهَرٍ يَشْغَلُ حَيْزًا وَلَا عَرَضٍ.

(١) سورة الأنبياء/ الآية (٢٢).

وَالجَوْهَرُ مَا لَهُ تَحْيُزٌ وَقِيَامٌ بِذَاتِهِ كَالْأَجْسَامِ، وَالْعَرَضُ مَا لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ وَإِنَّمَا يَقُومُ بِغَيْرِهِ كَالْحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ وَالاجْتِمَاعَ وَالْاِفْتِرَاقَ وَالْأَلْوَانَ وَالطُّعُومَ وَالرَّوَائِحَ، وَلِذَلِكَ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ فِي بَعْضِ رَسَائِلِهِ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ^(١) أَنِّي يُشْبَهُ الْخَالِقُ مَخْلُوقَهُ مَعْنَاهُ لَا يَصِحُّ عَقْلًا وَلَا نَقْلًا أَنْ يُشْبَهَ الْخَالِقُ مَخْلُوقَهُ، وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ «إِنَّ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْنَا وَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْلَمَهُ أَنَّ رَبَّنَا لَيْسَ بِذِي صُورَةٍ وَلَا هَيْئَةٍ فَإِنَّ الصُّورَةَ تَقْتَضِي الْكَيْفِيَّةَ وَهِيَ عَنِ اللَّهِ وَعَنْ صِفَاتِهِ مَنْفِيَّةٌ» رَوَاهُ عَنْهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ^(٢).

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ^(٣) «وَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِمَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ».

(١) الفقه الأكبر مع شرح ملا عليّ القاري (ص/٣٢٣) بنحوه.

(٢) الأسماء والصفات (ص/٢٩٦).

(٣) العقيدة الطحاوية (ص/٢٣ - ٢٤).

صِفَاتُ اللَّهِ كُلُّهَا كَامِلَةٌ

صِفَاتُ اللَّهِ أَزَلِيَّةٌ أَبَدِيَّةٌ لِأَنَّ الذَّاتَ أَزَلِيَّةً فَلَا تَحْصُلُ لَهُ صِفَةٌ لَمْ تَكُنْ فِي الْأَزَلِ، أَمَّا صِفَاتُ الْخَلْقِ فَهِيَ حَادِثَةٌ تَقْبَلُ التَّطَوُّرَ مِنْ كَمَالٍ إِلَى أَكْمَلٍ فَلَا يَتَجَدَّدُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْءٌ. وَاللَّهُ تَعَالَى خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِعِلْمِهِ الْأَزَلِيِّ وَقُدْرَتِهِ الْأَزَلِيَّةِ وَمَشِيئَتِهِ الْأَزَلِيَّةِ. فَالْمَاضِي وَالْحَاضِرُ وَالْمُسْتَقْبَلُ بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ أَحَاطَ بِهِ بِعِلْمِهِ الْأَزَلِيِّ.

قَالَ تَعَالَى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(١). وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾^(٢) فَيَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى أَيُّ نَقْصٍ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَمَكْرُؤًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾^(٣) فَالْمَكْرُ مِنْ الْخَلْقِ حُبٌّ وَخِدَاعٌ لِإِيصَالِ الضَّرَرِ إِلَى الْغَيْرِ بِاسْتِعْمَالِ حِيلَةٍ، وَأَمَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ مُجَازَاةٌ الْمَاكِرِينَ بِالْعُقُوبَةِ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرُونَ. وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى إِنَّ اللَّهَ أَقْوَى فِي إِيصَالِ الضَّرَرِ إِلَى الْمَاكِرِينَ مِنْ كُلِّ مَاكِرٍ جَزَاءً لَهُمْ عَلَى مَكْرِهِمْ فَالْمَكْرُ بِمَعْنَى الْاِحْتِيَالِ مُسْتَحِيلٌ عَلَى اللَّهِ.

وكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾^(٤) أَيُّ يُجَازِيهِمْ عَلَى اسْتِهْزَائِهِمْ.

(١) سورة الأعراف/ الآية (١٨٠).

(٢) سورة النحل/ الآية (٦٠).

(٣) سورة آل عمران/ الآية (٥٤).

(٤) سورة البقرة/ الآية (١٥).

واعلم أن العلماء يقولون نؤمن بإثبات ما ورد في القرآن والحديث الصحيح كالوجه واليد والعين والرضا والغضب وغيرها على أنها صفات يعلمها الله لا على أنها جوارح وأنفعالات كأيدينا ووجوهنا وعيوننا وغضبنا فإن الجوارح مستحيلة على الله لقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١)، وقوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٢).

قالوا لو كان لله عين بمعنى الجارحة والجسم لكان له أمثال فضلاً عن مثل واحد ولجاز عليه ما يجوز على المحدثات من الموت والفناء والتغير والتطور ولكان ذلك خروجا من مقتضى البرهان العقلي على استحالة التغير والتحول من حال إلى حال على الله لأن الدلائل العقلية على حدوث العالم طروء صفات لم تكن عليه والتحول من حال إلى حال.

ولا يصح إهمال العقل لأن الشرع لا يأتي إلا بمجوزات العقل أي إلا بما يقبله العقل لأنه شاهد الشرع، فالعقل يقضي بأن الجسم والجسمانيات أي الأحوال العارضة للجسم محدثة لا محالة وأنها محتاجة لمحدث، فيلزم من ذلك أن يكون المتصف بها له محدث ولا تصح الألوهية لمن يحتاج إلى غيره.

(١) سورة الشورى/ الآية (١١).

(٢) سورة الإخلاص/ الآية (٤).

معنى القدر والإيمان به

قال بعض العلماء القدرُ هو تدبير الأشياء على وجه مطابق لعلم الله الأزليِّ ومشِيئته الأزلية فيوجدُها في الوقت الذي علم أنها تكون فيه فيدخل في ذلك عملُ العبدِ الخيرِ والشرِّ باختيارِهِ. ويدل عليه قول رسول الله ﷺ لجبريل حين سأله عن الإيمان «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(١) رواه مسلم.

ومعناه أن المخلوقات التي قدرها الله تعالى وفيها الخير والشر وجدت بتقدير الله الأزليِّ، وأمّا تقدير الله الذي هو صفة ذاته فهو لا يوصف بالشر بل تقدير الله للشر الكفر والمعصية وتقديره للإيمان والطاعة حسنٌ منه ليس قبيحًا، إرادة الله تعالى نافذة في جميع مراداته على حسب علمه بها، فما علم كونه أراد كونه في الوقت الذي يكون فيه، وما علم أنه لا يكون لم يرد أن يكون، فلا يحدث في العالم شيء إلا بمشيئته ولا يصيب العبد شيء من الخير أو الشر أو الصحة أو المرض أو الفقر أو الغنى أو غير ذلك إلا بمشيئة الله تعالى، ولا يخطئ العبد شيءٌ قدر الله وشاء أن يصيبه، فقد ورد أن النبي ﷺ علم بعض بناته «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» رواه أبو داود في السنن^(٢) ثم تواتر واستفاض بين أفراد الأمة.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح.

وروى البيهقي^(١) رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عَنْ سَيِّدِنَا عَلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَخْلُصَ الْإِيمَانَ إِلَى قَلْبِهِ حَتَّى يَسْتَيْقِنَ يَقِينًا غَيْرَ شَكٍّ أَنْ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطئه وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبَهُ، وَيَقَرَّ بِالْقَدْرِ كُلِّهِ» أَي لَا يَجُوزُ أَنْ يُؤْمِنَ بِبَعْضِ الْقَدْرِ وَيَكْفُرَ بِبَعْضٍ.

وروى أيضًا^(٢) بالإسناد الصحيح أَنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ بِالْحَبَابِيَّةِ - وَهِيَ أَرْضٌ مِنَ الشَّامِ - فَقَامَ خَطِيبًا فَحَمِدَ اللهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ «مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مَضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهُ»، وَكَانَ عِنْدَهُ كَافِرٌ مِنْ كَفَّارِ الْعَجَمِ مِنْ أَهْلِ الذَّمَّةِ فَقَالَ بُلْغَةً «إِنَّ اللَّهَ لَا يَضِلُّ أَحَدًا»، فَقَالَ عَمْرٌ لِلتَّرْجَمَانِ «مَاذَا يَقُولُ» قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَضِلُّ أَحَدًا، فَقَالَ عَمْرٌ «كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ وَلَوْلَا أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ الذَّمَّةِ لَضَرَبْتَ عُنُقَكَ هُوَ أَضَلُّكَ وَهُوَ يَدْخُلُكَ النَّارُ إِنْ شَاءَ»^(٣).

فَتَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٤) يَعُودُ إِلَى اللَّهِ لَا إِلَى الْعَبْدِ كَمَا زَعَمَتِ الْقَدْرِيَّةُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ سَيِّدِنَا مُوسَى ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فَنُنْذِرُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ نَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ نَشَاءُ﴾^(٥).

وكذلك قالت طائفة ينتسبون إلى أمين شيخو الذين زعيمهم

(١) كتاب القضاء والقدر (ص/٢٩٩).

(٢) كتاب القضاء والقدر (ص/٢٦٠).

(٣) أي إن شاء أن تموت على كفرك هذا.

(٤) سورة النحل/ الآيات (٩٣).

(٥) سورة الأعراف/ الآيات (١٥٥).

اليوم عبد الهادي الباني الذي هو بدمشق فقد جعلوا مشيئة الله تابعة لمشيئة العبد حيث إن معنى الآية عندهم إن شاء العبد الاهتداء شاء الله له الهدى وإن شاء العبد أن يضل أضله الله^(١) فكذبوا بالآية ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾^(٢).

فالعباد منساقون إلى فعل ما يصدر عنهم باختيارهم لا بالإكراه والعجز كالريشة المعلقة تُميلها الرياح يَمَنَةً وَيَسْرَةً كما تقول الجبرية.

ولو لم يشأ الله عصيان العصاة وكفر الكافرين وإيمان المؤمنين وطاعة الطائعين لما خلق الجنة والنار.

ومن ينسب لله تعالى خلق الخير دون الشر فقد نسب إلى الله تعالى العجز ولو كان كذلك لكان للعالم مدبران مدبرٌ خيرٍ ومدبرٌ شرٍ وهذا كفر وإشراك.

وهذا الرأي السفيف من جهة أخرى يجعل الله تعالى في ملكه مغلوباً لأنه على حسب اعتقاده الله تعالى أراد الخير فقط فيكون قد وقع الشر من عدوه إبليس وأعوانه الكفار رغم إرادته. واعلموا رحمكم الله أن الله تعالى إذا عذّب العاصي فبعده من غير ظلم، وإذا أثاب المطيع فبفضله من غير وجوب عليه، لأن الظلم إنما يتصور ممن له أمر وناهٍ ولا أمر لله ولا ناهي له، فهو يتصرف في ملكه كما يشاء لأنه خالق الأشياء ومالكها.

(١) انظر كتابه التفسير (٢/١٠٥ و ٢٦٤).

(٢) سورة التكويد/الآية (٢٩).

قال تعالى ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١) أي ولكنه لم يشأ هداية جميعكم إذ لم يسبق العلم بذلك، فالعباد منساقون إلى فعل ما يصدر عنهم باختيارهم لا بالإكراه والجبر.

واعلم أنّ ما ذكرناه من أمر القدر ليس من الخوض الذي نهى النبي ﷺ عنه بقوله «إذا ذكر القدر فأمسكوا» رواه الطبراني^(٢)، لأنّ هذا تفسير للقدر الذي ورد به النصّ، وأمّا المنهنيّ عنه فهو الخوض فيه للوصول إلى سرّه، فقد روى الشافعي^(٣) والحافظ ابن عساكر^(٤) عن عليّ رضي الله عنه أنه قال للسائل عن القدر «سرّ الله فلا تتكلّف»، فلما ألحّ عليه قال له «أمّا إذ أبيت فإنه أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض».

واعلم أيضاً أنّ رسول الله ﷺ قد ذمّ القدرية وهم فرق، فمنهم من يقول العبد خالق لجميع فعله الاختياريّ، ومنهم من يقول هو خالق الشرّ دون الخير وكلا الفريقين كفار، قال رسول الله ﷺ «القدرية مجوس هذه الأمة»^(٥) وفي رواية لهذا الحديث «لكلّ أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر»

(١) سورة الأنعام/ الآية (١٤٩).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن مسعود (١١٦/٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٢/٧) «وفيه مسهر بن عبد الله وثقه ابن حبان وغيره وفيه خلاف وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٣) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال عن الإمام الشافعي (٣٤٨/١) وعزاه للحلية ولم نعثر عليه فيه.

(٤) تاريخ دمشق (١٨٢/٥١).

(٥) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٢٠٧/١٠).

رواه أبو داود^(١) عن حذيفة عن النبي ﷺ .
 وفي كتاب «القدر» للبيهقي^(٢) وكتاب «تهذيب الآثار»^(٣)
 للإمام ابن جرير الطبري رحمهما الله تعالى عن عبد الله بن
 عمر أنّ رسول الله ﷺ قال «صنفان من أمّتي ليس لهما نصيب في
 الإسلام القدريّة والمرجئة»^(٤) .

فالمعتزلة هم القدريّة لأنّهم جعلوا الله والعبد سواسية بنفي
 القدرة عنه عز وجل على ما يُقدِرُ عليه عبده، فكأنّهم يثبتون
 خالقين في الحقيقة كما أثبت المجوس خالقين خالقاً للخير هو
 عندهم النور وخالقاً للشر هو عندهم الظلام.

(١) رواه أبو داود في سننه كتاب السنة باب في القدر .

(٢) القضاء والقدر (ص/٢٨٨ - ٢٨٩) .

(٣) تهذيب الآثار (٢/١٨٠) .

(٤) المرجئة هم طائفة انتسبوا للإسلام كانوا يعتقدون أن العبد المؤمن مهما عمل
 من الكبائر ومات بلا توبة ليس عليه عذاب .

تقدير الله لا يتغير

اعلم أنَّ تقدير الله تعالى الأزلِّي لا يغيِّره شيء لا دعوةً داع ولا صدقةً متصدق ولا صلاةً مصلِّ ولا غير ذلك من الحسنات بل لا بدَّ أن يكون الخلق على ما قدَّر لهم في الأزل من غير أن يتغيَّر ذلك.

فلذلك لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ الدعاء الذي فيه «إن كنت كتبتني في أم الكتاب عندك شقيًّا فامحُ عني اسم الشقاء وأثبتني عندك سعيدًا، وإن كنت كتبتني في أم الكتاب محرومًا مقتراً عليَّ رزقي فامحُ عني حرمانِي وتقدير رزقي وأثبتني عندك سعيدًا موفَّقًا للخير ولا ما أشبهه، ولم يصحَّ هذا الدعاء أيضًا عن عمر ولا عن مجاهد ولا غيرهما من السلف كما يُعلم ذلك من كتاب «القدر» للبيهقي^(١).

(١) القضاء والقدر (ص/٢١٥ - ٢١٦).

تقسيم الأمور إلى أربعة

الأمور على أربعة أقسام

الأول شيء شاءه الله وأمر به وهو إيمان المؤمنين وطاعة الطائعين.

والثاني شيء شاءه الله ولم يأمر به وهو عصيان العصاة وكفر الكافرين، إلا أنّ الله لا يحب الكفر مع أنّه خلقه بمشيئته ولا يرضاه لعباده، قال تعالى ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾^(١).

والثالث أمر لم يشأه الله وأمر به وهو الإيمان بالنسبة للكافرين الذين علم الله أنّهم يموتون على الكفر أمروا بالإيمان ولم يشأه لهم.

والرابع أمر لم يشأه ولم يأمر به وهو الكفر بالنسبة للأنبياء والملائكة.

(١) سورة الزمر/ الآية (٧).

توحيد الله في الفعل

رُوِيَ عن الجنيد^(١) إمام الصوفية العارفين عندما سُئِلَ عن التوحيد أنه قال «اليقين» ثم استُفسر عن معناه فقال «إنه لا مكوّن لشيء من الأشياء من الأعيان والأعمال خالق لها إلا الله تعالى» اهـ، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

وقال الرسول ﷺ «إِنَّ اللَّهَ صَانِعُ كُلِّ صَانِعٍ وَصَنَعْتَهُ»، رواه الحاكم^(٣) والبيهقي^(٤) من حديث حذيفة، إذ العباد لا يخلقون شيئاً من أعمالهم وإنما يكتسبونها، فقد قال الله تعالى ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٥) تَمَدَّحَ تعالى بذلك لأنه شيء يختص به، وذلك يقتضي العموم والشمول للأعيان والأعمال والحركات والسكنات.

وقال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٦) لا شريك لله، وبذلك أُمِرْتُ وَأَنَا أَوْلُ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٦) ساق الله الصلاة والنسك والمحيَا والممات في مساق واحد وجعلها ملكاً له، فكما أن الله خالق الحياة والموت كذلك الله خالق للأعمال الاختيارية كالصلاة والنسك والحركات الاضطرارية

(١) حلية الأولياء (٢٥٦/١٠).

(٢) سورة الصافات/ الآية (٩٦).

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (٣١/١)، وسكت عليه، قال الذهبي «صحيح على شرط مسلم».

(٤) شعب الإيمان (٢٠٩/١).

(٥) سورة الرعد/ الآية (١٦).

(٦) سورة الأنعام/ الآية (١٦٢ - ١٦٣).

من باب الأوَّلَى . وإنما تمتاز الأعمال الاختيارية أي التي لنا فيها ميل بكونها مُكْتَسَبَةً لنا فهي محل التكليف .

والكسبُ الذي هو فعل العبد وعليه يثاب أو يؤخذ في الآخرة هو توجيه العبد قصده وإرادته نحو العمل أي يصرف إليه قدرته^(١) فيخلقه الله عند ذلك، فالعبد كاسب لعمله والله تعالى خالق لعمل هذا العبد الذي هو كسب له، وهو من أغمض المسائل في هذا العِلْمِ . قال الله تعالى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(٢) فليس الإنسان مجبوراً لأنَّ الجبر ينافي التكليف، وهذا هو المذهب الحق وهو خارج عن الجبر والقدر أي مذهب الجبرية والقدرية .

ويكفر من يقول إنَّ العبد يخلق أعماله كالمعتزلة، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ^(٣) «كلام القدرية كفر» والقدرية هم المعتزلة .

قال أبو يوسف^(٤) «المعتزلة زنادقة» .

ووصفهم أبو منصور التميمي في كتابه «الفرق بين الفرق»^(٥) بأنهم مشركون .

ولا تغترَّ بعدم تكفير بعض المتأخرين لهم، فقد نقل الأستاذ

(١) وهذا الصرف هو بمشيئة الله تعالى .

(٢) سورة البقرة/ الآية (٢٨٦) .

(٣) انظر شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٧١٣/٣) .

(٤) إيضاح الدليل (٢٢/١) وأصول الدين (ص/٣١٢) .

(٥) الفرق بين الفرق (ص/٣٣٩) .

الإمام أبو منصور التميميُّ البغداديُّ في كتابه «أصول الدين»^(١) وكذلك في كتابه «تفسير الأسماء والصفات»^(٢) تكفيرهم عن الأئمة. قال في كتابه «تفسير الأسماء والصفات»^(٣) «أصحابنا أجمعوا على تكفير المعتزلة» أي الذين يقولون العبد يخلق أفعاله الاختيارية، وكذلك الذين يقولون فرضٌ على الله أن يفعل ما هو الأصلح للعباد. وقوله «أصحابنا» يعني به الأشعرية والشافعية لأنه أشعريُّ شافعيُّ بل هو رأس كبير في الشافعية.

(١) أصول الدين (ص/٣١٢).

(٢) الأسماء والصفات (ق/ ٢٨٨).

(٣) هذا الكتاب نادر الوجود يوجد منه نسختان أو ثلاث خطية في بعض المكتبات.

تنبيه مهم

لا يُعْفَى الجاهلُ مما ذكرناه مِنَ الْأُصُولِ ولا يُعْذَرُ في ما يقع منه من الكفر لعدم اهتمامه بالدين .

ولو كان الجاهلُ يُسْقَطُ المؤاخِذَةَ لكان الجاهلُ خيراً من العلم وهذا خلاف قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١) إلا أن من كان قريب عهد بإسلام ونحوه لا يكفر بإنكار فرضية الصلاة وتحريم الخمر ونحو ذلك إن لم يكن سمع أن هذا دين الإسلام .

النُّبُوَّةُ

إنَّ اللهَ تعالى بعث الأنبياءَ رحمةً للعباد إذ ليس في العقل ما يستغني به عنهم لأنَّ العقل لا يستقلُّ بمعرفة الأشياء المنجية في الآخرة، ففي بعثة الأنبياءِ مصلحةٌ ضروريةٌ لحاجتهم لذلك، فالله مفضلٌ بها على عباده فهي سفارة بين الحقِّ تعالى وبين الخلق .

واعلم أنَّ النَّبِيَّ والرسولَ يشتركان في الوحي، فكلُّ قد أوحى الله إليه بشرع يعمل به لتبليغه للناس، غير أنَّ الرسولَ يأتي بنسخ بعضِ شرعٍ من قَبْلِهِ أو بشرعٍ جديدٍ، والنبيُّ غيرُ الرسولِ يوحى إليه ليتبع شرع رسول قبله وليبلِّغهُ . فلذلك قال العلماء «كل رسول نبيٍّ وليس كل نبيٍّ رسولاً» .

(١) سورة الزمر/ الآية (٩) .

ثم أيضًا يفترقان في أنَّ الرسالة يوصف بها الملك والبشر والنبوة لا تكون إلا في البشر.

ما يجب للأنبياء وما يستحيل عليهم

يجب للأنبياء الصدق ويستحيل عليهم الكذب، وتجب لهم الفطانة ويستحيل عليهم البلادة والغاوة، وتجب لهم الأمانة. فالأنبياء سالمون من الكفر والكبائر وصغائر الخسة وهذه هي العصمة الواجبة لهم، ويستحيل عليهم الخيانة، ويجب لهم الصيانة فيستحيل عليهم الرذالة والسفاهة والجبن وكل ما يُنقِرُ عن قبول الدعوة منهم، وكذلك يستحيل عليهم كل مرضٍ منقَرٍ. فمن نسب إليهم الكذب أو الخيانة أو الرذالة أو السفاهة أو الجبن أو نحو ذلك فقد كفر.

المعجزة

اعلم أنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ النَّبِيِّ الْمَعْجِزَةِ وَهِيَ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ يَأْتِي عَلَى وَفْقِ دَعْوَى مَنْ ادَّعَاوَا النَّبُوَّةَ سَالِمٌ مِنَ الْمَعَارِضَةِ بِالمِثْلِ.

فما كان من الأمور عجيبيًا ولم يكن خارقًا للعادة فليس بمعجزة. وكذلك ما كان خارقًا لكته لم يقترن بدعوى النبوة كالخوارق التي تظهر على أيدي الأولياء أتباع الأنبياء فإنه ليس بمعجزة بل يُسَمَّى كرامة.

وكذلك ليس من المعجزة ما يُسْتَطَاعُ مَعَارِضَتُهُ بِالمِثْلِ كَالسَّحْرِ فَإِنَّهُ يُعَارِضُ بِسِحْرِ مِثْلِهِ.

وجهُ دلالةِ المعجزةِ على صدقِ النبيِّ

الأمرُ الخارق الذي يظهر على يد من ادعوا النبوةَ مع التحديِّ^(١) مع عدم معارضته بالمثل نازلٌ منزلةً قول الله صدق عبدي في كل ما يبلغ عني، أي لولا أنه صادقٌ في دعواه لما أظهر الله له هذه المعجزة، فكأن الله تعالى قال صدق عبدي هذا الذي ادعى النبوة في دعواه لأنني أظهرت له هذه المعجزة لأن الذي يصدق الكاذب كاذبٌ والله يستحيل عليه الكذب.

الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وسؤاله

قال الله تعالى ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾^(٢)، وقال تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾^(٣)، فهاتان الآيتان واردتان في عذاب القبر للكفار، وأما عصاة المسلمين من أهل الكبائر الذين ماتوا قبل التوبة فهم صنفان صنف يُعفيهمُ الله من عذاب القبر وصنفتُ يعذبهم ثم ينقطع عنهم ويؤخر لهم بقية عذابهم إلى الآخرة.

روى البخاريُّ ومسلمٌ^(٤) عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال «إن العبد إذا وُضِعَ في قبره وتولَّى عنه أصحابه وإنه ليسمعُ قرعَ نعالهم إذا

(١) أي مع كونه صالحًا للتحدي.

(٢) سورة غافر/ الآية (٤٦).

(٣) سورة طه/ الآية (١٢٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز باب الميت يسمع خفق النعال، ومسلم في صحيحه كتاب الجنة باب عرض مقعد الميت.

انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً. وأما الكافر أو المنافق فيقول لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيه، فيقال لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، ثم يُضْرَبُ بمطرقة من حديد بين أذنيه فيصيح صيحةً يسمعا من يليه إلا الثَّقَلَيْنِ».

وعن أبي هريرة^(١) رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ أَوْ الْإِنْسَانُ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا مَنكَرٌ وَلِلْآخَرِ نَكِيرٌ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ فَهُوَ قَائِلٌ مَا كَانَ يَقُولُ. فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَالَ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولَانِ لَهُ إِنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ لَتَقُولُ ذَلِكَ، ثُمَّ يَفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ ذِرَاعًا وَيُنَوِّرُ لَهُ فِيهِ، يُقَالُ لَهُ نَم، فَيَنَامُ كَنَوْمِ الْعُرُوسِ الَّذِي لَا يوقظه إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ. فَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ لَا أَدْرِي، كُنْتَ أَسْمَعُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَكُنْتُ أَقُولُهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ إِنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، ثُمَّ يَقَالُ لِلْأَرْضِ التَّعْمِي فَتَلْتَمِمْ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ فَلَا يَزَالُ مَعَذِبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ».

ثم إذا بَلِيَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا عَجْبُ الذَّنْبِ يَكُونُ رُوحَ الْمُؤْمِنِ التَّقِيِّ فِي الْجَنَّةِ وَتَكُونُ أَرْوَاحُ عِصَاةِ الْمُسْلِمِينَ أَهْلَ الْكِبَائِرِ الَّذِينَ مَاتُوا بِلَا تَوْبَةٍ بَعْدَ بَلَى الْجَسَدِ فِيمَا بَيْنَ السَّمَاءِ

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الجنائز باب ما جاء في عذاب القبر، وقال حسن غريب.

والأرض، وبعضهم في السماء الأولى. وتكون أرواح الكفار بعد بلى الجسد في سجين، وهو مكان في الأرض السفلى، وأما الشهداء فتصعد أرواحهم فوراً إلى الجنة.

تنبيه. يُستثنى من السؤال النبي والشهداء أي شهداء المعركة وكذلك الطفل الذي مات دون البلوغ.

الْبَعْثُ

الْبَعْثُ حَقٌّ، وَهُوَ خُرُوجُ الْمَوْتَى مِنَ الْقُبُورِ بَعْدَ إِعَادَةِ الْجَسَدِ الَّذِي أَكَلَهُ التُّرَابُ إِنْ كَانَ مِنَ الْأَجْسَادِ الَّتِي يَأْكُلُهَا التُّرَابُ وَهِيَ أَجْسَادُ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ وَشُهَدَاءِ الْمَعْرَكَةِ وَبَعْضِ الْأَوْلِيَاءِ لِمَا تَوَاتَرَ مِنْ مُشَاهَدَةِ بَعْضِ الْأَوْلِيَاءِ.

وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَهْلُ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَالطَّائِفِ مِنْ أَوَّلِ مَنْ يُبْعَثُ.

الْحَشْرُ

وَالْحَشْرُ حَقٌّ، وَهُوَ أَنْ يُجْمَعُوا بَعْدَ الْبَعْثِ إِلَى مَكَانٍ، وَيَكُونُ عَلَى الْأَرْضِ الْمَبْدَلَةِ، وَهِيَ أَرْضٌ مُسْتَوِيَةٌ كَالْجِلْدِ الْمَشْدُودِ لَا جِبَالَ فِيهَا وَلَا وُدْيَانَ، أَكْبَرُ وَأَوْسَعُ مِنْ أَرْضِنَا هَذِهِ بَيضاءَ كَالْفِضَّةِ.

وَيَكُونُ الْحَشْرُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ

قِسْمٌ طَاعِمُونَ كَأَسْوَنَ رَاكِبُونَ عَلَى نُوقٍ رَحَائِلُهَا مِنْ ذَهَبٍ وَهُمْ الْأَنْفِيَاءُ.

وَقَسَمَ حُفَاةٌ عُرَاةٌ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ .
وَقَسَمَ يُحْشَرُونَ وَيُجْرُونَ عَلَى وَجُوهِهِمْ وَهُمْ الْكُفَّارُ .

الْحِسَابُ

وَالْحِسَابُ حَقٌّ، وَهُوَ عَرْضُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ عَلَيْهِمْ، وَيَكُونُ
بِتَكْلِيمِ اللَّهِ لِلْعِبَادِ جَمِيعِهِمْ، فَيَفْهَمُونَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ السُّؤَالَ عَمَّا
فَعَلُوا بِالنَّعْمِ الَّتِي أَعْطَاهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَيُسِرُّ الْمُؤْمِنُ التَّقِيَّ وَلَا
يُسِرُّ الْكَافِرُ لِأَنَّهُ لَا حَسَنَةَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ بَلْ يَكَادُ يَغْشَاهُ الْمَوْتُ،
فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ» اهـ رواه أحمدُ والترمذيُّ (١) .

الْمِيزَانُ

وَالْمِيزَانُ حَقٌّ، وَهُوَ كَمِيزَانِ الدُّنْيَا لَهُ قَصَبَةٌ وَعَمُودٌ وَكِفَّتَانِ
كَفَّةٌ لِلْحَسَنَاتِ وَكَفَّةٌ لِلسَّيِّئَاتِ تُوزَنُ بِهِ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
وَالَّذِي يَتَوَلَّى وَزْنَهَا جَبْرِيْلُ وَمِيكَائِيلُ، وَمَا يُوزَنُ إِنَّمَا هُوَ
الصَّحَائِفُ الَّتِي كُتِبَ عَلَيْهَا الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ، فَمَنْ رَجَحَتْ
حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّجَاةِ، وَمَنْ تَسَاوَتْ حَسَنَاتُهُ
وَسَيِّئَاتُهُ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّجَاةِ أَيْضًا وَلَكِنَّهُ أَقْلُ رُتْبَةً مِنَ الطَّبَقَةِ
الْأُولَى وَأَرْفَعُ مِنَ الثَّالِثَةِ، وَمَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ فَهُوَ
تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ. وَأَمَّا الْكَافِرُ

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب صفة القيامة باب ما في القيامة، وقال «هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد في مسنده (٢٥٦/٤).

فَتَرَجَّحَ كَفَّةُ سَيِّئَاتِهِ لَا غَيْرَ لِأَنَّهُ لَا حَسَنَاتٍ^(١) لَهُ فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّهُ أُطْعِمَ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا.

الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ

الثَّوَابُ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ لَيْسَ بِحَقٍّ لِلطَّائِعِينَ وَاجِبٌ عَلَى اللَّهِ، وَإِنَّمَا هُوَ فَضْلٌ مِنْهُ وَهُوَ الْجَزَاءُ الَّذِي يُجْزَى بِهِ الْمُؤْمِنُ مِمَّا يَسْرُهُ فِي الْآخِرَةِ.

وَالْعِقَابُ لَا يَجِبُ عَلَى اللَّهِ أَيْضًا إِيقَاعُهُ لِلْعَصَاةِ، وَإِنَّمَا هُوَ عَذْلٌ مِنْهُ، وَهُوَ مَا يَسُوءُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ أَكْبَرَ وَأَصْغَرَ، فَالْعِقَابُ الْأَكْبَرُ هُوَ دُخُولُ النَّارِ وَالْعِقَابُ الْأَصْغَرُ مَا سِوَى ذَلِكَ كَأَذَى حَرِّ الشَّمْسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّهَا تُسَلِّطُ عَلَى الْكُفَّارِ فَيَعْرَقُونَ حَتَّى يَصِلَ عَرَقُ أَحَدِهِمْ إِلَى فِيهِ وَلَا يَتَجَاوَزُ عَرَقُ هَذَا الشَّخْصِ إِلَى شَخْصٍ آخَرَ بَلْ يَقْتَصِرُ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُولَ الْكَافِرُ مِنْ شِدَّةِ مَا يُقَاسِي مِنْهَا رَبِّ أَرْحِنِي وَلَوْ إِلَى النَّارِ، وَيَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ الْأَتْقِيَاءُ تِلْكَ السَّاعَةَ تَحْتَ ظِلِّ الْعَرْشِ، وَهَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ^(٢) «سَبْعَةٌ يُظَلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ»، أَي فِي ظِلِّ عَرْشِهِ.

الصِّرَاطُ

وَالصِّرَاطُ حَقٌّ، وَهُوَ جِسْرٌ عَرِيضٌ مَمْدُودٌ عَلَى جَهَنَّمَ تَرْدُ

(١) يجوز فتح التاء وكسرها بلا تنوين في الحالين.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأذان باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة.

عَلَيْهِ الْخَلَائِقُ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَرُدُّهُ وَرُودَ دُخُولٍ وَهُمْ الْكُفَّارُ وَبَعْضُ
عُصَاةِ الْمُسْلِمِينَ، أَيْ يَزِلُّونَ مِنْهُ إِلَى جَهَنَّمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرُدُّهُ
وَرُودَ مُرُورٍ فِي هَوَائِهِ، فَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ الْحَاطِفِ،
وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَطَرْفَةِ عَيْنٍ، وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى ظَاهِرِهِ بَعِيرٍ
تَأْوِيلٍ، وَأَحَدُ طَرَفَيْهِ فِي الْأَرْضِ الْمُبَدَّلَةِ وَالْآخَرُ فِيمَا يَلِي
الْجَنَّةَ، وَقَدْ وَرَدَ فِي صِفَتِهِ أَنَّهُ «دَحْضٌ مَزَلَّةٌ»^(١).

الْحَوْضُ

وَالْحَوْضُ حَقٌّ، وَهُوَ مَكَانٌ أَعَدَّ اللَّهُ فِيهِ شَرَابًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ
يَشْرَبُونَ مِنْهُ قَبْلَ دُخُولِ الْجَنَّةِ وَبَعْدَ مُجَاوِزَةِ الصِّرَاطِ، فَلِنَبِينَا
حَوْضٌ تَرُدُّهُ أُمَّتُهُ فَقَطْ لَا تَرُدُّهُ أُمَّمٌ غَيْرُهُ طَوْلُهُ مَسِيرَةٌ شَهْرٍ
وَعَرْضُهُ كَذَلِكَ، ءَانِيَّتُهُ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ، شَرَابُهُ أَبْيَضٌ مِنْ
اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ.

وقد أعد الله لكل نبي حوضاً وأكبر الأحواض حوض نبينا

محمد ﷺ .

صفة الجنة

وَالْجَنَّةُ حَقٌّ فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِهَا وَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ الْآنَ كَمَا يُفْهَمُ
ذَلِكَ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ^(٢)، وَهِيَ فَوْقَ السَّمَاءِ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية.

(٢) كحديث «دخلت الجنة فرأيت فيها داراً وقصراً»، رواه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه.

السَّابِعَةَ^(١) لَيْسَتْ مَتَّصِلَةً بِهَا، وَسَقَفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَأَهْلُهَا عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ ءَادَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا طُولًا فِي سَبْعَةِ أَذْرُعٍ عَرْضًا جَمِيلُو الصُّورَةِ، جُرْدٌ مُرْدٌ فِي عُمُرٍ ثَلَاثَةٍ وَثَلَاثِينَ عَامًا، خَالِدُونَ فِيهَا لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وَصْفِهَا «هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأَلُ وَرِيحَانَةٌ تَهْتَرُ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ، وَفَاكُهُ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسَنَاءٌ جَمِيلَةٌ، وَحُلٌّ كَثِيرَةٌ فِي مَقَامِ أَبَدِيٍّ فِي حَبْرَةٍ وَنَضْرَةٍ» رَوَاهُ ابْنُ حَبَانَ^(٢).

صِفَةُ جَهَنَّمَ

وَالنَّارُ حَقٌّ، يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهَا وَبِأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ الْآنَ كَمَا يُفْهَمُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، وَهِيَ مَكَانٌ أَعَدَّهُ اللَّهُ لِعَذَابِ الْكُفَّارِ الَّذِي لَا يَنْتَهِي أَبَدًا وَبَعْضِ عَصَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَكَانُهَا تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ مَتَّصِلَةً بِهَا.

وَيَزِيدُ اللَّهُ فِي حَجْمِ الْكَافِرِ فِي النَّارِ لِيَزْدَادَ عَذَابًا حَتَّى يَكُونَ ضَرْسُهُ كَجَبَلِ أُحُدٍ، وَهُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ أَبَدًا لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا أَيْ حَيَاةً فِيهَا رَاحَةً، لَيْسَ لَهُمْ فِيهَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ، وَشَرَابُهُمْ مِنَ الْمَاءِ الْحَارِّ الْمُتَنَاهِي الْحَرَارَةَ.

(١) كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ (٦/٢٣٢)، وَقَالَ تَعَالَى ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [سورة النجم]، أَيْ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى.

(٢) الْإِحْسَانُ بِتَرْتِيبِ صَحِيحِ ابْنِ حَبَانَ (٩/٢٣٨).

الشَّفَاعَةُ

وَالشَّفَاعَةُ حَقٌّ وَهِيَ سُؤَالُ الْخَيْرِ مِنَ الْعَيْرِ لِلْعَيْرِ فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْعُلَمَاءُ الْعَامِلُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالْمَلَائِكَةُ، وَيَشْفَعُ نَبِيُّنَا لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ^(١)، أَي غَيْرِ أَهْلِ الْكِبَائِرِ لَيْسُوا بِحَاجَةِ لِلشَّفَاعَةِ، وَتَكُونُ لِبَعْضِهِمْ قَبْلَ دُخُولِهِمُ النَّارَ وَلبَعْضٍ بَعْدَ دُخُولِهِمْ قَبْلَ أَنْ تَمْضِيَ الْمَدَّةُ الَّتِي يَسْتَحِقُّونَ بِمَعَاصِيهِمْ، وَلَا تَكُونُ لِلْكَفَّارِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْضَى﴾^(٢)، وَأَوَّلُ شَافِعٍ يَشْفَعُ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ.

الرُّوحُ

يَجِبُ الْإِيمَانُ بِالرُّوحِ وَهِيَ جِسْمٌ لَطِيفٌ لَا يَعْلَمُ حَقِيقَتَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ الْعَادَةَ أَنْ تَسْتَمِرَّ الْحَيَاةُ فِي أَجْسَامِ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْبَهَائِمِ مَا دَامَتْ تِلْكَ الْأَجْسَامُ اللَّطِيفَةُ مُجْتَمِعَةً مَعَهَا، وَتُفَارِقُهَا إِذَا فَارَقَتْهَا تِلْكَ الْأَجْسَامُ، وَهِيَ حَادِثَةٌ لَيْسَتْ قَدِيمَةً، فَمَنْ قَالَ إِنَّهَا قَدِيمَةٌ لَيْسَتْ مَخْلُوقَةً فَقَدْ كَفَرَ، وَكَذَلِكَ مَنْ قَالَ الْبَهَائِمُ لَا أَرْوَاحَ لَهَا كَمَا قَالَ ذَلِكَ مُحَمَّدٌ مُتَوَلِّي الشُّعْرَاوِيِّ فِي كِتَابِيهِ التَّفْسِيرِ وَالْفَتَاوَى^(٣). وَذَلِكَ تَكْذِيبٌ

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (١٣٢/٨).

(٢) سورة الأنبياء/ الآية (٢٨).

(٣) انظر كتابه الفتاوى (٢١٨/١).

لِلْقُرْآنِ وَإِنْكَارُ اللَّعْيَانِ قَالَ تَعَالَى ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾^(١). وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢).

(١) سورة التكوير/ الآية (٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم.

خاتمة

خلاصة ما مضى من الأبحاث أن من عرف الله ورسوله ونطق بالشهادة ولو مرة في العمر ورضي بذلك اعتقاداً فهو مسلم مؤمن .

ومن عرف ونطق ولم يعتقد فليس بمسلم ولا بمؤمن عند الله، وأما عندنا فهو مسلمٌ لِحَفَاءِ بَاطِنِهِ عَلَيْنَا، وإن كان يتظاهر بالإسلام ويكره الإسلام باطنًا أو يتردد في قلبه هل الإسلام صحيح أم لا فهو منافق كافر وهو داخل في قول الله تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(١) فهو والكافر المعلن خالدان في النار خلودًا أبدياً .

وقول البعض يصحُّ إيمان الكافر بلا نطقٍ مع التمكن قولٌ باطلٌ لا يُلتفتُ إليه . وقال بعضهم «من نشأ بين أبوين مسلمين يكتفيه المعرفة والاعتقاد لصحة إسلامه وإيمانه لو لم ينطق بالمرّة» .

ثم مَنْ صَحَّ له أصل الإيمان والإسلام ولو لم يَقُمْ بأداء الفرائض العملية كالصلوات الخمس وصيام رمضان ولم يجتنب المحرمات إلى أن مات وهو على هذه الحال قبل أن يتوب فقد نَجَا من الخلود الأبدِيّ في النار، ثم قسم منهم يسامحهم الله ويدخلهم الجنة بلا عذاب وقسم منهم يعذبهم ثم يخرجهم

(١) سورة النساء/ الآية (١٤٥) .

ويدخلهم الجنة، والله أعلم بمن يسامحه ومن لا يسامحه. وأما من مات بعد أن تاب فأدى جميع ما افترض الله عليه واجتنب المحرمات فهو كأنه لم يذنب لقوله ﷺ «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» حديث صحيح رواه ابن ماجه^(١) عن ابن مسعود.

وفي صحيح البخاري^(٢) أن رجلاً قال يا رسول الله أسلم أو أقاتل قال «أسلم ثم قاتل» فأسلم فقاتل فقتل، فقال رسول الله ﷺ «عمل قليلاً وأجر كثيراً» أي لأنه نال الشهادة بعد أن هدم الإسلام كل ذنب قدمه فالفضل للإسلام لأنه لو لم يسلم لم ينفعه أي عمل يعمل به. وهذا الرجل كان التحق بالمجاهدين من أجل أن قومه الذين هم مسلمون خرجوا من غير أن يسلم ثم ألهمه الله أن يسأل الرسول فسأل فأرشده الرسول ﷺ إلى أن يسلم ثم يقاتل.

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه كتاب الزهد باب ذكر التوبة، وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٤٧١/١٣)، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٥٠/١٠)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٠/١٠) «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد والسير باب عمل صالح قبل القتال.

خاتمة الخاتمة

لِيُفَكِّرَ الْعَاقِلُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (١) فَإِنْ مِنْ فَكَّرَ فِي ذَلِكَ عِلْمَ أَنْ كُلَّ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ فِي الْجِدِّ أَوْ الْهَزْلِ أَوْ فِي حَالِ الرِّضَا أَوْ الْغَضَبِ يَسْجُلُهُ الْمَلَكَانُ، فَهَلْ يَسُرُّ الْعَاقِلَ أَنْ يَرَى فِي كِتَابِهِ حِينَ يَعْضُ عَلَيْهِ فِي الْقِيَامَةِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْخَبِيثَةَ بَلْ يَسُوؤُهُ ذَلِكَ وَيَحْزَنُهُ حِينَ لَا يَنْفَعُ النَّدَمَ فَلْيَعْتَنِ بِحِفْظِ لِسَانِهِ مِنَ الْكَلَامِ بِمَا يَسُوؤُهُ إِذَا عَرَضَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ.

قال رسول الله ﷺ «خصلتان ما إن تجمل الخلائق بمثلهما حسن الخلق وطول الصمت» رواه عبد الله بن محمد أبو بكر بن أبي الدنيا القرشي في كتاب الصمت (٢).

انتهى الكتاب

وسبحان الله والحمد لله رب العالمين
وصلى الله وسلم على سيدنا محمد الأمين
وءاله وأصحابه الطيبين.

(١) سورة ق/ الآية (١٨).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت بنحوه (ص/٣١٣).

فهرس المواضيع

- ٣ المقدمة
- ٥ متن الصراط المستقيم
- ٥ أعظم حقوق الله على عباده
- ٦ معنى الشهادتين
- ٩ لا دين صحيح إلا الإسلام
- ١١ حكم من يدعي الإسلام لفظاً وهو مناقض للإسلام معنى
- ١٢ بيان أقسام الكفر
- ١٥ فائدة مهمة
- ١٦ الوقاية من النار
- ١٦ ما جاء في بدء الخلق
- ١٨ قدم الله ليس زمانياً
- ٢٠ تنزيه الله عن المكان وتصحيح وجوده بلا مكان عقلاً
- ٢٦ صفات الله الثلاث عشرة
- ٢٦ الوجود
- ٢٧ القدم
- ٢٧ البقاء
- ٢٨ السمع
- ٢٨ البصر
- ٢٩ الكلام
- ٣١ الإرادة
- ٣٢ القدرة
- ٣٣ العلم
- ٣٤ الحياة
- ٣٤ الوحدانية
- ٣٥ القيام بالنفس
- ٣٥ المخالفة للحوادث

- ٣٧ صفات الله كلها كاملة
- ٣٩ معنى القدر والإيمان به
- ٤٤ تقدير الله لا يتغير
- ٤٥ تقسيم الأمور إلى أربعة
- ٤٦ توحيد الله في الفعل
- ٤٩ تنبيه مهم
- ٤٩ النبوة
- ٥٠ ما يجب للأنبياء وما يستحيل عليهم
- ٥٠ المعجزة
- ٥١ وجه دلالة المعجزة على صدق النبي
- ٥١ الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وسؤاله
- ٥٣ البعث
- ٥٣ الحشر
- ٥٤ الحساب
- ٥٤ الميزان
- ٥٥ الثواب والعقاب
- ٥٥ الصراط
- ٥٦ الحوض
- ٥٦ صفة الجنة
- ٥٧ صفة جهنم
- ٥٨ الشفاعة
- ٥٨ الروح
- ٦٠ خاتمة
- ٦٢ خاتمة الخاتمة
- ٦٣ فهرس المواضيع